

آفاق التجنيس والحجاج في النقد العربي المعاصر

بحث في مرجعيات قراءة التراث السردي

د. محمد عبد البشير مسالتي

جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2

الملخص: تصدر هذه المقاربة من مبدأ نظري يرى أنّ البحث في تلقي السرد العربي القديم في النقد العربي المعاصر لا يمكن أن يكون بمعزل عن مقولات نظرية التلقي، هذا ولا يخفى على أهل النظر أنّ ركن مقولات التلقي ينطلق من تصوّر محدّد للقراءة والتلقي، وهو تصور يستند على افتراضات أساسية؛ منها أنّ النص لا ينفصل عن تاريخ تلقيه وقراءته التي نتجت عنه، فتاريخ النص هو على وجه التحديد تاريخ تلقيه وتجسّداته المتلاحقة عبر التاريخ، ومنها كذلك أنّ فحص تاريخ التلقي والقراءات يفلت من مزاعم النزعة الفردية الذاتية، فأنماط التلقي ليست ذاتية تماما، بل تنشأ من أفق جماعي عام، حيث جماعة من القراء يصدرون عن أفق تاريخي واحد، وتحركهم هواجس أيديولوجية متشابهة، كما أنهم -ها هنا- يشتركون في مجموعة من الافتراضات، والغايات، والمصطلحات الفنية، واستراتيجيات القراءة، مما يسمح بالوصول إلى نتائج مشتركة، وتأويل متشابه. وهذا ما يجعلنا نصدح دون تردد بأن فعل التلقي والقراءة لا يتحقق إلا من خلال التفاعل بين النص والقارئ من جهة، وبين القارئ اللاحق والقارئ السابق من جهة ثانية، وبين القراءة المتعاصرين من جهة ثالثة.

كلمات مفتاحية: التراث، الحداثة، القراءة، التأويل، التلقي، السرد

Abstract

Many modernism researchers were very concerned in the ancient literature heritage; that was since our modern cultural renaissance had contributed in reviving this heritage, than trying to restore its valuable side. Thus it took the orientation in order to reach modern development and innovation. Those researchers had worked on the old manuscripts with their hearts and souls. They

wanted to create a connection between the modern culture and the ancient one.

They especially focused on the literate works of Aldjahid whose books supplied modernity searchers with a huge number of inductions, analyses and elicitation; which are obviously ambiguous for any searcher to find their specialty or to classify them in human sciences and disciplines, according to our new thoughts.

The inquiry of this interference is; as the researcher **mohamed machbal/...**(who emphasized on Aldjahid's method and theory) says: ... The main purpose of this interference is unjointing some of the mental and literate axiomatic which Aldjahid was known for. Is how did **mohamed machbal/ ...** understand and make an approach for Aldjahid's works. How did he apply the thoughts of this ancient author, than: What did he give as an addition? What was the influence of modernity? Than looking for the originality of this method which was the topic of the searcher in his approach of Aldjahid's works. Finally, how serious wer his results ?

أولاً: مقارنة السرد و سؤال المنهج :

لايكاد المتأمل في قضايا القراءة النقدية داخل الثقافة العربية الحديثة يظفر بما يرتضيه إجابة شافية، تصل به إلى برّ اليقين فيما يخص المنهج الذي يتوسّل به المؤلّ في قراءة التراث السردى وتأويله؛ ولعلنا لا نجانب الصواب إذا اعتبرنا أن مسألة المنهج هاهنا تستمد أهميتها من كونها تمثل حجر الزاوية في نظرية المعرفة، فلا تكاد المعارف الإنسانية تنبني وتتقدّم إلاّ إذا توقّرت لها الأدوات المنهجية الملائمة، وقد أدرك المفكّرون والفلاسفة منذ القدم الترابط الوثيق بين تحصيل المعرفة والالتزام بشروطه المنهجية، فكانوا يلحّون على أنّ الارتقاء بالتفكير لتحقيق المعرفة الصحيحة يستوجب بالضرورة وضع قواعد وأسس تحدّد علاقة الذات العارفة بموضوعها، وتضمن أن يكون التفكير سليماً، فيقود إلى معرفة الحقيقة، ولا يوقع في الزيغ والأوهام⁽¹⁾

(1)- عبد القادر حسون: إشكالية المنهج عند النقاد المعاصرين ودورها في تطوير قراءة الشعر القديم، الندوة الدولية الثانية: قراءة التراث الأدبي واللغوي في الدراسات الحديثة، بحوث علمية

إنّ تباين القراءات التي فحصت السرد القديم تحكّمه المنطلقات المفهومية والمنهجية لأصحابها، وهي منطلقات لا يتم استنباطها من صميم النص المقروء أو من سياقه الثقافي والحضاري، بل يتم إسقاطها على النص والبحث عن المسوغات والمبررات التي تسمح بتمريرها والإقناع بها، ذلك أننا حين نضع المنهج، نكون في الوقت نفسه قد اختلقنا الموضوع ولهذا فعندما نقرأ التراث ننطلق بتعبير جابر عصفور من مواقف فكرية محددة، لا سبيل إلى تجاهلها، ونفتش في التراث عن عناصر للقيمة الموجبة أو السالبة، بالمعنى الذي يتحدد إطاره المرجعي بالمواقف الفكرية التي تنطلق منها. ولعلّ المتأمل للممارسة النقدية العربية يلحظ أنه يغلب عليها تطبيقات آلية تتجاهل الحقيقة التاريخية والحضارية لمناهج النقد الغربية في علاقاتها بواقعنا العربي الحاضر.

إنّ تقييم التجربة العربية قد يتم في ضوء ما تحققه من انصهار في الآخر وذوبان فيه بحجة أن المناهج العلمية ملك إنساني للجميع والحاصل. أنّ المنتبغ للحركة الثقافية العربية عامّة، يلاحظ بكل سهولة، التمزق الذي يطبع خطابها، ويقسمه، ولو بشكل غير متساو لمجموعتين: (1)

- واحدة تعتمد المناهج الغربية الحديثة، بكلّ ما لها من حمولة حضارية، فكرية وأيديولوجية، تجعل منه خطابا نقديا معريا أكثر منه عربيا، نلمس آثاره السلبية في شكل اغتراب جزئيّ أو كليّ، يطبع مختلف أطرافه، (موضوعا وتأليفا، وتلقيا).

- وأخرى توظف مناهج عربية أصيلة، تمتد جذورها لتضرب في عمق التاريخ العربيّ، أيام ازدهار الحركة الأدبية عامة، والنقدية منها على الخصوص، مع أعلامها المرموقين أمثال ابن سلام، والجاحظ، وقدامة، والجرجاني...

وهو انقسام يجسّد بصدق وعمق، التصدع والحيرة اللذين طبعا ولا يزالان، توجهات المفكرين العرب حيال إشكالية النهضة التي واجهتهم منذ الحملة النابوليونية على مصر

محكمة، 2014، جامعة الملك سعود، كلية الآداب، قسم اللغة العربية وآدابها (نسخة إلكترونية)، ص 102 وما بعدها

(1) - عبد العالي بوطيب: الوحدة والتنوع في فكر عميد الأدب المغربي الدكتور "عباس الجري"، مطبعة الأمانة، الرباط، 1998، ص 34

إلى الآن، وما صاحبها من إحساس فظيع بعمق الهوة الحضارية الفاصلة بين غرب متقدم متطور، وشرق متخلف جامد.

بمعنى أنّ الانقسام الذي يطبع خطابنا النقديّ المعاصر ما هو في الحقيقة سوى «مظهر من مظاهر المواقف المتباينة التي نتخذها من الإشكال الحضاريّ العام الذي نواجهه، ولا يمكن فهم أبعاده العميقة، ولا الدور الرياديّ الخطير الذي يمكن أن يلعبه المنهج في تجاوز هذا التحديّ الحضاريّ، خارج هذا الإطار الشموليّ المتكامل، لما بينهما من تداخل، عادة ما يطلع علاقة الجزء بالكل»⁽¹⁾. كما يؤكد عل ذلك الباحث الجراي في مقدمة كتابه "خطاب المنهج" حيث يوضح أنّ قضية المنهج تعدّ في طبيعة اهتمامات الدارسين والنقاد العرب، إذ يرونها حجر الزاوية لتجاوز الأزمة التي يعانيها الفكر، وكذا تخطي الواقع في شئى مظاهر معاناته، إلا أنّ عرضها مفصولة عن السياق المعرفيّ ومجموع مكونات الذات وحواجز الإبداع، يجعل التناول مبتورا لا يفضي إلى رؤية صحيحة ومتكاملة، تبلور حقيقة المنهج، وتتيح التحكم فيه بحل إشكاليّته⁽²⁾.

هكذا فإنّ إشكاليّة المنهج، من قبل ومن بعد، جزء من إشكاليّة شاملة كبرى، تلك هي إشكاليّة البحث عن الذات وهي إشكاليّة تستوجب أخذ البعد التاريخيّ، والخصوصيّة الحضاريّة الدائميّة، بعين الاعتبار في كل حلّ موضوعيّ عقلائيّ يتوخى إخراج العالم العربيّ من وضعه المأساويّ الممزق، بين غرب متقدم تنوّق إليه، وتراث حضاريّ متجاوز ترتبط به، وهو ما ينقص الحلّان السابقتان الواقعان بحكم تعصّبهما الأعمى لأحد الطرفين (الحضارة الغربيّة أو التراث العربيّ) إما في أغلال الانغلاق المكرّس للتخلف، وإما في برائن الانفتاح اللامشروط الموقع في أحضان الاستلاب، كما يُجمع على ذلك أغلب المهتمين، وتؤكدّه النتائج العلميّة السلبية لتطبيقاتها على مستوى الواقع، مما يفسّر موقف

(1) عبد العالي بوطيب: إشكاليّة المنهج في الخطاب النقديّ العربيّ الحديث، مجلة عالم الفكر، العدد الأول والثاني، يوليو/سبتمبر - أكتوبر، ديسمبر 1994، المجلد الثالث والعشرون، ص 462.

(2) ينظر: الجراي، عباس: خطاب المنهج، منشورات السفير، ط1، 1990 (المقدمة).

بعض الباحثين الرافض لهما. بالنظر لعقهما في حلّ معادلة التّحدي الحضاريّ الصّعبة، حيث يقول الجراري: «إنّ الانسياق لأحد التّيارين لا يجدي في شيء»⁽¹⁾.

لأنّ المنهج «شأنه شأن باقي الإفرازات الحضاريّة الأخرى، إنّما هو أولاً وقبل كل شيء، ثمرة مرحلة تاريخيّة ذات خصوصيّات اجتماعيّة واقتصاديّة وسياسيّة معينة، ومن ثمّ فإنّ كل تعامل معه يغيب هذه الحقيقة، يتولد عنه بالضرورة نوع من الانسجام بفعل اختلاف ظروف نشأته وميلاده عن ظروف تطبيقه، وهو ما يستدعي إعادة النّظر المستمرة في المنهج، لجعله مواكبا دائما لشروط تطبيقه الجديدة المتجددة، مادام يستحيل تكثيف هذه الأخيرة معه، حتى لا يبقى هناك نشاز وتنافر بين الاثنتين، تتعكس آثارها السلبية على نوعيّة الدّراسات والأبحاث، في شكل ظواهر مرضيّة، شبيهة بتلك التي تكتنف بعض ممارساتنا النّقديّة الحديثة، نتيجة تغييبها للبعد التّاريخيّ في تعاملها مع المناهج الحديثة»⁽²⁾، وهو ما لاحظته الباحث الجراري حيث يقول: «... إنّ ما يقال عن مقلديهم من العرب، يكاد، أن يفرغ محاولاتهم من كل إيجاب، إذ تتضخم المآخذ، لاسيما والمعطيّات المشار إليها تكاد أن تكون غير ذات صلة ببيئة الأدب العربيّ في بعدها الاجتماعيّ والنّفسيّ والاقتصاديّ دون أن نتحدث عن طبيعة اللغة»⁽³⁾.

فالمنهج كيفما كان، ليس بريئا، ولم ينزل من السماء، وإنّما هو كما يقول عبد العالي بوطيب: «وليد شرعيّ وطبيعيّ لظروف تاريخيّة وحضاريّة معينة، ومن ثمّ فهو لا يملك كفاية إجرائيّة مطلقة، بحيث يمكن تطبيقه في كل العصور والأمكنة، بغض النّظر عن حجم الفروق والاختلافات التي تفصلها عن ظروف النّشأة والميلاد التي كان المنهج ثمرة لخصوصيّتها، دون أن يتسم هذا التّطبيق بطابع التعسف. ستكون له دون شكّ مضاعفاته السلبية على نتائج هذه الدراسات، في شكل ظواهر مرضيّة»⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ المرجع نفسه، ص 45.

⁽²⁾ - عبد العالي بوطيب: الوحدة والتنوع في فكر عميد الأدب المغربي الدكتور "عباس الجراري"، ص 37-38

⁽³⁾ الجراري، عباس: خطاب المنهج، ص 24.

⁽⁴⁾ - عبد العالي بوطيب: إشكالية المنهج في الخطاب النقدي العربي الحديث، ص 464.

إنّ المنهج، باعتباره وليد ظروف تاريخية وحضارية متميزة، يكتسب بفعلها طابع التسيية الإجرائية المرتبطة بخصوصية الظروف التي أفرزته، وكلّ تعامل معه خارج هذا الإطار، يحتمّ على الباحث الجاد، المهتم بقيمة بحثه وعلمية نتائجه، وكذا صلاحية الأداة الإجرائية المعتمدة في إنجازه، تحريره من ارتباطه السابق، عن طريق إعادة النظر فيه، على ضوء الخصوصيات التاريخية والحضارية لظروف التطبيق، وما يميزها عن ظروف النشأة والميلاد، شريطة ، ألا يمسّ هذا التعديل جوهر المنهج وثوابته بالتحريف، وأن يقتصر فقط على عناصره المتغيرة.

وعليه، فإذا كانت ظروفنا التاريخية والحضارية الحالية تحتم علينا، بحكم التخلف الذي نوجد فيه، لتجاوزها، الاقتباس في كلّ المجالات، بما فيها المناهج، ومن جميع الجهات (شرقية كانت أم غربية)، على حد سواء، مادام الاقتباس في حد ذاته، يعدّ أمراً عادياً وطبيعياً بين الأمم والشعوب، لكون الفكر لا يعير كبير اهتمام للحدود السياسية والجغرافية المصطنعة المقامة بين الدول، وإنما العيب، كلّ العيب، يكمن في نوعية وطبيعة هذا الاقتباس، وأخصّ بالذكر هنا (الاقتباس الأعمى) الذي لا يعير أي اعتبار للمتغيرات التاريخية والحضارية الناجمة عن هذه العملية، وبذلك يتجاوز حدود (الانفتاح) ليسقط في أحضان الانبساط، والاستلاب، والتبعية، والاعتزّاب، إلى غير ذلك من الأوصاف السلبية المتولدة عن غياب ما أسماه الباحث إدوارد سعيد (بالوعي النقدي) في اقتباساتنا الحضارية والفكرية. وتبعاً لذلك؛ نذهب مع إدوارد سعيد^(*)، إلى أننا نحتاج إلى النظرية، بكل تأكيد، لأسباب متنوعة لا مجال لذكرها، أو تعدادها هنا، وما نحتاج إليه أيضاً علاوة على النظرية هو الاعتراف النقدي، بأنّه لا توجد هناك نظرية قادرة على التغطية والتطويق والتنبؤ مسبقاً، بكافة الأوضاع التي يمكن استخدامها فيها... وهذا يعني أنّه ينبغي استيعاب النظرية في المكان والزمان اللذين تبرز كجزء منهما، حين تعمل في الزمان ولأجله، وتتجاوز معه، وبناء على ما تقدم فإنّ المكان الأول يمكن قياسه ضد الأماكن اللاحقة، حين تبرز النظرية لكي توضع موضع الاستخدام، فالوعي النقدي هو إدراك لفوارق بين الأوضاع، وكذلك هو إدراك للحقيقة القائلة بأنّه ما من نظرية أو نظام، يستتضب (أو يغطي أو يسيطر) الوضع الذي نشأ معه، أو يتمّ نقله

(*)- للوقوف على طرح إدوارد سعيد ينظر: العالم والنص والناقد.

إليه، وباختصار، فإنَّ النَّظريَّة لا يمكنها، أبداً، أن تكون تامَّة وكاملة، مثلما أنَّ اهتمام المرء، في الحياة اليوميَّة لا تستوعبه أبداً الصور الزائفة والنماذج أو التجريدات النَّظريَّة المستخلصة منها.

وهو نفس الموقف تقريباً الذي يجمع عليه أغلب المفكرين المتبصرين، لأنَّه إذا كان الانفتاح ضروريّاً لكل تقدّم، فإنَّه سرعان ما يصبح انسلاخاً وتبعيَّة، إن هو لم يتقيد بشروط موضوعيَّة تضبط حدوده وتوجهاته، وتحافظ للذات على خصوصيَّتها وتمايزاتها، التي بدونها لن تجد مكاناً في الخريطة الحضاريَّة الكونيَّة، شريطة أن لا تبلغ هذه المحافظة، حدَّ الانغلاق فتقلب لتقوِّع، يسد الأبواب ويكرِّس التَّخلف، ذلك أن: «النَّهضة لا تتطوَّر من فراغ بل لا بد فيها من الانتظام في تراث، والشُّعوب لا تحقق نهضتها بالانتظام في تراث غيرها، بل بالانتظام في تراثها هي، تراث-الغير - صانع الحضارة الحديثة، تراث ماضيه وحاضره، ضروريٌّ لنا فعلاً، ولكن لا-كثرات - نندمج فيه ونذوب في دروبه ومنعرجاته، بل كمكتسبات إنسانيَّة - علميَّة ومنهجيَّة - متجددة ومتطورة، لا بد منها في عمليَّة الانتظام الواعي العقلانيِّ النَّقديِّ في تراثنا»⁽¹⁾.

وهو هدف لا يمكن أن يتحقَّق إلا باتخاذ موقف وسط توفيقيّ^(*) يأخذ بعين الاعتبار وضعنا الحضاريِّ الرَّاهن بكل أبعاده وخصوصيَّاته، بين تراث قديم من إفراز مرحلة لم يعد لها وجود، من جهة، وحضارة غربيَّة حديثة تتجاوزنا معطياتها بمراحل كثيرة، من جهة أخرى، مما سيعمل دون شك على تمكيننا من ميكانيزمات المعرفة المعاصرة، ويؤصل جذورها في تربتنا، بعيداً عن كل تبعيَّة أو استلاب، وهذا ما أكده

(1) - عبد العالي بوطيب: إشكالية المنهج في الخطاب النقدي العربي الحديث، ص 465.

(*) - والفرق كبير طبعاً بين التوفيقية والتلفيقية، فالتلفيق هو أن نجمع بتحكم بين المعاني والآراء المختلفة حتى نؤلف منها مذهباً واحداً، وهذه المعاني والآراء لا تبدو لك متفقة لعدم التعمق في إدراك بواطنها، ولذلك كان استعمال هذا اللفظ في مقام =الذم أكثر منه في مقام المدح. ومذهب التلفيق مقابل لمذهب التوفيق، لأن مذهب التوفيق لا يجمع من الآراء إلا ما كانت وحدته مبنية على أساس معقول، أما مذهب التلفيق فلا يبالي بذلك، لأنه يقتصر على النظر في الأشياء نظراً سطحياً للوقوف على هذه المصطلحات **ينظر:** جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ج1/365.

الجراري: «لكن لا بد من موقف وسط يركز الهدف فيه على صياغة علم إسلامي بما يستتبعه من مناهج، حتى تتحقق مساهمة المسلمين في إغناء المعرفة التي أخذت اليوم أبعادا إنسانية عالمية، وهذا الموقف الوسط يقوم على توفيقية تكون مفضية إلى تأصيل المعرفة والمنهج، وليس إلى التَّفيق الذي كثيرا ما يخلط بينه وبين التَّوفيقية»⁽¹⁾. وهو ما لا يمكن ترجمته على مستوى الواقع، حسب الباحث الجراري، إلا بالقيام بعمليتين متكاملتين تمد في كل واحدة منهما اليد لحضارة من الحضارتين العربية والغربية، بنوع من الوعي التاريخي الفاحص، حتى يتحقق التَّلاقح المرغوب، بالانسجام والتَّوافق المطلوبين، دون نشاز ولا تنافر: «أولهما: الرُّجوع إلى تراثنا العلمي وسبر أغواره، واكتشافه من جديد لحصر العناصر المعرفية والمنهجية، واستحضار ما هو حي منها وملائم لتوظيفه كما هو، أو ما هو قابل للتَّطوير قبل التَّوظيف، وكذا لاستخلاص ما هو صالح لنطلق منه أو نستوحي أو نستمد بعض ما يقوي فينا قدرة الإبداع أو يفتح أبوابه. وثانيهما: التَّفتح بوعي وعمق وحرية على تراث الغرب، ويجد، في شتّى نواحيه ومختلف ميادينه، ليس لمجرد اتباعه والبقاء في مؤخرة الرُّكب لاهئين خلفه، ولكن لاكتساب المقومات التي أهلته للتَّقدم، وبدون هذا الاكتساب سوف نظل مجرد مستهلكين لما يتبقى من فتات يلفظه الغير، إنَّ إجراء هذه العملية يتطلب وسائل وإمكانيات، تقوم على مدى إحساسنا بالواقع الذي نعيشه، ومدى الرغبة في تغييره، والقدرة على هذا التغيير، كما تقوم على معرفتنا بالذات، والكيان وتحديدنا للغايات والأهداف، ونظرتنا الموضوعية لآخر في غير قبول أو رفض مسبقين، وتقوم قبل هذا وبعده على الوعي الصحيح بالعملية لفهما وإدراكها واستيعابها، في حقيقتها وعمقها، بعيدا عن أيّ جدل عقيم، لا يستند إلا على مجرد التَّحيز والخصومة، وتلك إشكالية أخرى»⁽²⁾.

وبذلك يتحقق التَّعامل الواعي مع المناهج بعيدا عن كل تشيع أعمى أو شوفينية ضيقة، مما ستكون له عواقب إيجابية على خطابنا النقدي وتثقفه مما يتخبط فيه من ظواهر مرضية.

(1) - الجراري، عباس: خطاب المنهج، ص 45.

(2) - المرجع نفسه، ص 30-31.

إن الاستفادة الحقيقية من المناهج الغربية لا تكون بالنقل والتكرار فحسب، بل بإعادة إنتاجها في سوق النقد الأدبي العربي عبر رؤية تاريخانية تقوم على دراسة متأنية ومعقفة للمادة النقدية الغربية في شرطها التاريخي والحضاري، مما يمكننا من فرز الصالح من الطالح في ضوء ما يسميه العروى المسافة التاريخية الفاصلة بين فضائي النشأة والاستقبال⁽¹⁾.

يقتضي النظر في خطابات الجاحظ^(*) السردية بوصفها نصوصاً قديمة تحقق نمط من الوعي القرائي النقدي (La conscience Lisante critique)؛ متمس بتعدد واجهاته، وتوسع استراتيجياته حتى يتمكن من الانتشار في أكثر من اتجاه معرفي ويقدر

⁽¹⁾ ينظر: عبد الله العروى: الإيديولوجية العربية المعاصرة، ترجمة محمد عيتاني، دار الحقيقة، بيروت، ط1، 1970.

(*) - هو عمرو بن بحر الكناني البصري المكنى بأبي عثمان، تاريخ ميلاده هو عام 160هـ، أما وفاته فكانت بالبصرة سنة 255هـ / 896م. وهناك مصادر ومراجع كثيرة تناولت حياة الجاحظ وأخباره وآثاره فمن المصادر مثلاً: الفهرست لابن النديم، ومعجم الأديباء لياقوت الحموي، ولسان الميزان لابن حجر العسقلاني، وتاريخ بغداد للقفطي، ومروج الذهب للمسعودي، وأمالى المرتضى. ومن المراجع الكثيرة نذكر: الجاحظ ومجتمع عصره لشارل بيلا، وأدب الجاحظ لحسن السندي، والجاحظ لأحمد الحوفي، وضحى الإسلام لأحمد أمين، وتواريخ الأدب العربي بمجملها مثل شوقي ضيف وكارل بروكلمان وعمر فروخ ومصطفى صادق الرافعي وغيرهم. ولا يشك أحدٌ من دارسي الأدب القديم في أن الجاحظ من أعظم أديباء العربية، فقد كان محط إعجاب الباحثين، قدامى ومحدثين، أدهشتهم سعة علمه، وأطلّعه على أكثر ما في هذا الكون من معارف، درس الجاحظ اللغة والأدب والبلاغة عن أئمة علمائها، وأخذ أصول الإعتزال عن رؤسائه وامتاز عنهم بذوقه الأدبي الرفيع وطبيعته النفاذة المبتكرة، ومن يطلع على عناوين مؤلفات الجاحظ سيجد أن قلمه وبيانه، قد سجل كل ما تمخّض عنه الفكر البشري لعهد، من علوم وآداب... هذه الشمولية، وذلك العمق والإبداع في آثار الجاحظ، جعل الدارسين المحدثين يكبّون على مدونته درساً وتمحيصاً، بحيث لا يخلو أي كتاب في العصر الحديث في أثناء حديثه عن الفكر البلاغي، أو تاريخ التراث العربي من ذكر الجاحظ بوصفه معلماً من المعالم البارزة، ذات الأثر الفعال في تاريخ البلاغة العربية منذ القرن الثالث وحتى أيامنا الحاضرة.

على مواجهة الأسئلة المخصوصة التي يفرزها تراثنا القديم: ما هي طبيعة المعالجة التي يمكن أن نرومها؟ هل نحلل ذلك النص، أم نشرحه، أم نفسره، أم نوّله أم نقاربه؟ هل نتعامل معه مثلما نتعامل مع نصوصنا المعاصرة؟ ثم بأيّ أداة أو رؤية نفعل ذلك: بواسطة وسيلة عريّة معاصرة أم بالاستفادة من الملاحظات الجماليّة والالتفاتات النقديّة القديمة المبنوثة: نلتقطها ثم نستثمرها استثمارا حداثيًا؟ هل نقارب ذلك النص في ضوء مفاهيم نظريّات التلقّي والأجناس الأدبيّة، والبلاغيّة، والأسلوبية الغربيّة، أم بمنهج نقديّ عربيّ؟

انطلاقا مما تقدم، فإنّ الحديث عن قراءة سرد الجاحظ «تلمنا التثبت والتأني في اختيار المنهج الملائم والمقاربة المواتية، وهذا لا يتأتى إلا داخل النظام المعرفيّ المعين، سواء أكان هذا خاصا بالتراث، أم بالنظريّات الغربيّة»⁽¹⁾. والسؤال المطروح هنا إلى أيّ مدى تجسّدت هذه الرؤية عند قراءة سرد الجاحظ؟

ثانيا: سرد الجاحظ ولحظة الفهم^(*)/الخطاب السردى بين إعادة الإنتاج وإعادة القراءة.
«إن قارئ التراث السردى ينبغي أن تكون عينه على الحاضر؛ أي البحث عن انعكاسات قراءته في واقعه الثقافي المعاصر»

1- صياغة السرد في ضوء النموذج الجماليّ الأدبيّ الحديث (علي عبيد):

في مقاربة بعنوان «في تحليل النص السردى القديم النادرة أنموذجا»⁽²⁾ صدرت في 2012 نلحظ أنّ الباحث علي عبيد يستخدم النموذج الجماليّ الأدبيّ الحديث كمعيار أعاد في ضوئه صياغة سرد الجاحظ، يرى الباحث علي عبيد أنّ نادرة «ما دار بين رمضان وشيخ أهوازي» تستوعب جلّ خصائص جنس الخبر التي ضبطها الدارسون

(1) صلاح الدين زرال: الظاهرة الدلالية عند علماء العربية القدامى حتى نهاية القرن الرابع الهجري، منشورات الاختلاف، ط01، 2008، ص 31.

(*) فهم: مصطلح يشير إلى وصف الأثر وتصنيف وحداته الشكلية وتحليل عناصره اللغوية وتعيين خصائصه الداخلية، سمير سعيد حجازي قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر، ط1، دار الآفاق العربية، 2001م، ص 31.

(2) - علي عبيد: في تحليل النص السردى القديم النادرة أنموذجا، محلة الراوي، العدد 25، سبتمبر 2012.

المحدثون «فقد كانت بنيته الحديثة بنية بسيطة وشخصياته علامتين موظفتين لأداء أدوار محددة، ومقاطعته محتكمة إلى علاقة سببية»⁽¹⁾.

لقد فحص الباحث نادرة «مادار بين رمضان وشيخ أهوازي» بوصفها متوفرة على عناصر القصة كالتشخيصات والحوار، والأحداث، والمكان، والزمان، والتصوير النفسي للشخصيات، والحبكة Intrigue. لذلك فقد حلل هذه النادرة في ضوء المنهج السردى الحديث، مستعينا بنظريات متنوعة؛ نحو نظرية جيرار جنيت (Gerard Genette) في تحليل الخطاب القصصي، ونظريات تودوروف T.Todorov، كما استفاد من منجزات فلاديمير بروب، ومن بعض نظرية قريماس.

وهكذا، فقد عكف الباحث على تقسيم مقارنته إلى مستويات ثلاثة؛ تناول في أولها النص من حيث هو حكاية (Histoire) فتدبر فيه الأعمال والفاعِل، وفي ثانيها اهتم به خطابا قصصيا (Discour narratif)، فخاض في الزمن، وصيغ التمثيل، والصوت السردى، ونظر في المستوى الثالث في الدلالة.

استنتج الباحث أن خطاب الجاحظ السردى «اتسم باقتصاد أساليبه، وأما ترتيب أحداثه فكان تعاقبيا»⁽²⁾ كما استخلص أن خطاب الجاحظ فيه تناوب بين السرد والحوار، علاوة على رؤية مصاحبة أضفت عليه مزيدا من الحيوية والإيهام بالواقع ولئن بدا في ظاهره كلاما متواترا مداره على الاتباع فإنه في باطنه تخيل وابتداع⁽³⁾.

وقد أنهى الباحث مقارنته بخاتمة تحمل بين طياتها معيارية واضحة، يقول: «هكذا نتبين أن نص الجاحظ هذا وإن اندرج في نطاق الخبر الأدبي الذي راج في القرن الثالث للهجرة وألّم بخصائصه الفنية فإنه انطوى أيضا على جنس محدث آخر هو النادرة نستشف فيه من سمات لعل أبرزها التنصيص على مقام التندر وقاعدتي الاسم واللغة ومراعاة قانون المشاكلة والتوسل بالإيجاز والإضحاك فضلا عن التهكم والسخرية. ولعل في هذا التعالق/التنازع ما بين الخبر والنادرة ما يعزز القول بعلاقات التفاعل بين

(1)- المرجع نفسه، ص 53.

(2)- المرجع نفسه، ص ن.

(3)- ينظر: المرجع نفسه، ص ن.

الأجناس (Les rapports de genericite) في النصوص الأدبية ولا سيما القديمة منها»⁽¹⁾.

إنّ قراءة الباحث علي عبّيد لم تراخ الفروق البلاغية النوعية بين القص القديم وآليات القراءة الحديثة، ولم تقم التفاعل المطلوب بين الأفق البلاغي للسرد الجاحظي/القديم والأفق البلاغي السري الحديث.

وتعضيدا لهذا الطرح يذهب عبد الله إبراهيم إلى أن كثيرا «من المفاهيم الجديدة أقيمت في غير سياقاتها، وفي حالات كثيرة وقع تعسف ظاهر في تطبيق نماذج تحليلية اشتقت من نصوص أجنبية بالفرنسية أو الإنجليزية على نصوص عربية من دون الانتباه إلى مخاطر التعميم. واستعيرت طرائق جاهزة عدت أنظمة تحليلية ثابتة وكلية لا تتغير بتغير النصوص وسياقاتها الثقافية. ومن الطبيعي أن يرتسم في الأفق تكلف لا يخفى؛ إذ تنطع للنقد أفراد أرادوا إبراز قدرتهم على عرض مفاهيم السردية، وليس توظيفها في تحليل نقدي جديد. وكل هذا جعل تلك الجهود تحوم حول النصوص، ولا تتجرأ على ملامستها. ويمكن تفسير كثير من تلك العثرات على أنها نتاج الانبهار بالجديد، وادعاء الاقتران به، وتبني مقولاته، دون استيعابه، وهضمه، ودون تمثّل النظام الفكري الحامل له»⁽²⁾.

وفي ضوء علاقة بعض قرّاء الجاحظ - وفق ما سميناه صياغة السرد الجاحظي في ضوء النموذج الجماليّ الأدبيّ الحديث - الشائكة بالسردية، انصرف الاهتمام إلى المفاهيم والنماذج التحليلية، ونذر أن جرى اهتمام معمق باستكشاف مستويات النصوص الأدبية الجاحظية، فالأكثر وضوحا كان استخدام النصوص لإثبات صدق فرضيات السردية، وليس توظيف معطياتها لاستكشاف خصائص تلك النصوص، إذ قلبت الأدوار، وأصبحت النصوص دليلا على أهمية النظرية وشمولها، وانتهى الأمر إلى أن أصبحت المقولات السردية شبه مقدّسة لدى عدد كبير من ممارسي النقد. وكل نص لا يستجيب للإطار النظري الافتراضي يعد ناقصا وغير مكتمل، ولا يرقى إلى مستوى التحليل، وينبغي إهماله، أو نفيه من قارة السرد، ولهذا شغل بعض النقاد بتركيب نموذج تحليلي من خلال عرض النماذج التحليلية التي أفرزتها آداب أخرى، فجاءت النصوص العربية

(1)- المرجع نفسه، ص 53.

(2)- المرجع نفسه ، ص 30.

على خلفية بعيدة لتضفي شرعية على إمكانات النموذج التحليلي المستعار وكفاءته، وبدل أن تستخدم المقولات دليلاً للتعرف على النص، جرى العكس، إذ جيء بالنصوص لتثبيت مصداقية الإطار النظري للسردية.

إن علاقة مقلوبة بين السردية والنصوص الأدبية الجاحظية ستفضي لا محالة إلى قلب كل الأهداف التي تتوخاها العملية النقدية، فليس النقد والقول لعبد الله إبراهيم «ممارسة يقصد بها تفتيح نموذج تحليلي من نماذج أنتجتها سياقات ثقافية أخرى، إنما اشتقاق نموذج من سياق ثقافي بعينه دون إهمال العناصر المشتركة بين الآداب الإنسانية الأخرى، ثم الاستعانة به أداة للتحليل، والاستكشاف، والتأويل، وليس تمزيق النصوص لتأكيد كفاءة ذلك النموذج الافتراضي. تلك العلاقة المقلوبة بين السردية والنصوص قادت إلى هوس في التصنيف الذي لا ينتج معرفة نقدية، ولا يتمكن من إضاءة النصوص، ناهيك عن التصميم المسبق لفرض النموذج على نصوص لا يفترض فيها أن تستجيب له إلا بعد تخريبها»⁽¹⁾.

1- قراءة السرد من منظور أفق التجنيس (فرج بن رمضان):

لعل إحدى مهمات البلاغة منذ القدم، اضطلاعها بتصنيف الصور والخطابات، فالتصنيف جزء من صميم عمل البلاغي، لأنه يكشف عن مختلف الصور والأساليب والأصناف والأشكال والأنواع التي يتوسل بها الأديب في أعماله. فبلاغة النص الأدبي تعني اللفظة المفردة بقدر ما تعني النوع الأدبي الذي تنتمي إليه. والبلاغي مطالب في مقارنته باستيعاب النص في كونه البلاغي الشامل⁽²⁾.

(1)- المرجع نفسه ، ص 31.

(2)- **ينظر:** أمين الخولي: فن القول، دار الفكر العربي بالقاهرة. وهذا هو المفهوم الرحب للبلاغة، وهو الذي سعى محمد مشبال إلى اكتشافه وتأصيله في القراءات الإجناسية التي نظرت في أدب الجاحظ. (**ينظر:** كتابه: البلاغة والسرد، جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة عبد الملك السعدي، تطوان- المغرب، 2010، وينظر أيضاً بحثه الموسوم: التصوير والحجاج نحو فهم تاريخي لبلاغة نثر الجاحظ، مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد 02، أكتوبر - ديسمبر، 2011، المجلد 40).

لقد صدر فرج بن رمضان في دراسته للقصص العربي القديم في ضوء نظرية الأجناس عن موقف طائفة من الباحثين العرب رأت أنّ «الأجناس مبحث شائك متشعب، متداخل الأبواب»، بالنظر إلى «تعدد وجهات النظر المتأتية منها أولاً وأساساً من تعدد ضروب المعرفة الأدبية ذات الصلة به: النقد، الإنشائية، تاريخ الأدب، الأدب المقارن»⁽¹⁾.

بيد أنّ إقرار فرج بن رمضان بالصعاب التي تواجه تطبيق نظرية الأجناس على الأدب العربي القديم لم يمنعه من الحماسة لهذا الضرب من الدرس بالنظر إلى الفائدة الجلية، في تقدير الباحث، التي يمكن أن تعود على هذا الأدب من محاولة فهمه استناداً إلى مقررات نظرية الأجناس، ومن ثمّ وقر في نفسه أنه أصبح من المهم «التأكيد على القيمة القصوى للجنس الأدبي كمفهوم مركزي في تأسيس المعرفة الأدبية، وكأداة في رصد وفهم الواقع الأدبي بكل قطاعاته وظواهره وقضاياها»⁽²⁾.

قسم الباحث دراسته إلى قسمين: اختص القسم الأول بإشكالية المقاربة الأجناسية لنصوص الأدب العربي القديم. فيما عني في الثاني بأصول الأجناس القصصية ومكانتها في نظام أجناس الأدب العربي القديم.

يقدم فرج بن رمضان في القسم الثاني من الدراسة مقترحاً تصنيفياً تنتظم بمقتضاه أجناس القصص العربي القديم في (مسالك) باصطلاح الباحث، حصرها في ثلاثة، قاصداً من ذلك مختلف المسارات والآليات التي خضعت لها الأجناس القصصية في رحلة تشكلها بما يسلم، في المحصلة، إلى تكوين خطاطة تصنيفية عامة لأجناس القصص.

(1) - فرج بن رمضان: الأدب العربي القديم ونظرية الأجناس، دار محمد علي الحامي، صفاقس، تونس، الطبعة الأولى، 2001، ص 11. يستأنف فرج بن رمضان في هذه الدراسة ما كان قد بدأه في دراسات سابقة اهتمت بجنس السرد في السياق العربي بالمراجعة والنقويم، صنيعه في دراسة له شهيرة موسومة بـ(محاولة في تحديد وضع القصص في الأدب العربي القديم)، حوليات الجامعة التونسية، ع 32، 1991، ص 241، وهي الدراسة التي رصد فيها (هامشية) القصص في الأدب العربي، فبحث أسبابه وتقصى مظاهره.

(2) - فرج بن رمضان: الأدب العربي القديم ونظرية الأجناس، ص 8.

- المسلك الأول: يتصل بـ«أجناس قصصية ناشئة من خطابات غير أدبية»⁽¹⁾. وقد اختص ابن رمضان هذا المسلك بضبط نشأة أجناس أدبية عبر مختلف عمليات التحويل في بنية الملفوظ، وما يواكبها أو يترتب عليها من انتقال في مقام التلفظ والتداول من مجال الخطابات (اللاأدبية) إلى مجال الأدب. وقد أدرج الباحث ضمن هذا المسلك:

أ- جنس الخبر الأدبي: انحدر إلى مجال الأدب من ميداني الحديث الديني والخبر التاريخي.

ب- جنس الكرامة الصوفية: جاء إلى الأدب بطرائق التحول عن مصادر غير أدبية مثل معجزات الأنبياء والمتحققة نصيا في (السيرة) بالنسبة إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وفي (القرآن) وما اشتق منه وتولد عنه من (تفاسير)، ثم (القصص الديني) الذي يعود إلى تراث الأمم السابقة على الإسلام.

ج- جنس النادرة: تناول ابن رمضان هذا الجنس في صيغته الجاحظية منجزا نصيا ومنظرا لها من خلال كتاب يعده مؤسسا لجنس النادرة في الأدب العربي هو (البخلاء). ويدرج ابن رمضان النادرة ضمن مجال الأخبار، متابعا في ذلك محمد القاضي. وتأسيسا على ذلك قرر الباحث أنه يجري على جنس النادرة، من حيث النشأة والتحول، ما يجري على الخبر، وإن كان الأمر لا يسلم لـ ابن رمضان باليسر الذي يطمئن إليه، فقد سجل تحفظه على هذا الوصل بين النادرة والخبر لما رأى في النادرة من مقومات عديدة تكفي لاعتبارها جنسا قائم الذات.

- المسلك الثاني: حاول فيه ابن رمضان ضبط نشأة بعض الأجناس القصصية في السياق العربي بفعل الترجمة وتأثير الآداب غير العربية، وقد مثل الباحث لهذا المسلك بالحكاية المثلّية وأنموذجها (كليلة ودمنة)، الذي عدّه ابن رمضان نصا تأسيسيا لهذا الجنس في الأدب العربي، كما أدرج ضمن هذا المسلك (ألف ليلة وليلة) و(الحكاية العجبية).

(1) - المرجع نفسه، ص 63.

– المسلك الثالث: اهتم الباحث فيه بتحديد نشأة الأجناس القصصية عبر شتى صيغ التفاعل والتحاوُر بين الأجناس الأدبيّة العربيّة عامة، صادرا في ذلك عن تصور يرى أن الأجناس تشتق من الأجناس، وأنه ليس ثمة أصل للأجناس إلا الأجناس^(*).

لقد شكلت نشأة الأجناس القصصيّة وتحولاتها في الأدب العربي القديم (نقطة البحث) في دراسة فرج بن رمضان، الذي أفاد في بحث هذه القضية من تنظيرات نقاد غربيين لامعين مثل تودوروف الذي اقتبس منه فكرة التناسب بين نظام الأجناس والأيدولوجيا السائدة لتفسير نظام الأجناس في الأدب العربي⁽¹⁾، وميخائيل باختين الذي أخذ عنه عديد آراء وتصورات تخص منشأ الأجناس وتحولاتها⁽²⁾، كما أفاد الباحث من المناهج النقدية الحديثة من إنشائية وأسلوبية وبنوية. ولعل نظرية التلقي أن تكون المثال الأظهر على ذلك فقد استلهمها الباحث عند حديثه مثلا عن مقامات القص العربي القديم التي تنوعت عنده إلى: مقام التندر ومقام القص ومقام الحكاية⁽³⁾. وهي (مقامات) نظر إليها الناقد في ضوء خصوصيتها الثقافيّة، حيث راعى تنزلها في سياق ثقافي مخصوص هو المجتمع العربي عامة والوسط المدني خاصة.

إن اختصاص الباحث جنس القصص. – القطاع الهامشي في الأدب العربي – بهذه الدراسة الجادة ليعد إضافة نوعية إلى السرديات العربيّة، بما جلت من خصوصيّة

(*) – ويدخل في هذا المسلك:

أ- قصص أصول الأمثال التي أعاد الباحث النظر في تسميتها، فرأى أنها ليست من (الأصول) في شيء وإنما هي، عنده، (فروع) متحدرة من نواة، أو هي نصوص الأمثال.
ب- قصص تتبثق من الشعر على وجه التعليل والتفسير وبالعكس، إذ يمكن للقصص أن تتحول إلى علة أو مصدر يتولد منه الشعر.

ج- الرسالة القصصيّة: تسمية جامعة يطلقها الباحث على صنف من الرسائل مخصوص، ينبثق في (القصصي) من (الرسائلي)، ويمثل له بـ(رسالة الغفران) للمعري و(التوابع والزوابع) لابن شهيد و(حي بن يقظان) لابن طفيل.

(1) – المرجع نفسه، ص 52.

(2) – المرجع نفسه، ص 37.

(3) – المرجع نفسه، ص 103 – 106.

السرد العربي القديم، وما سلطت على مناطقه المعتمدة من أضواء كاشفة، يهتدي بها ناشئة الباحثين في مسالك وممالك المأثور النثري.

أما الفاحص لجهد فرج بن رمضان في مقارنته لنصوص الجاحظ، فيجده يجعل من نصوص الجاحظ السردية الهزلية - على الرغم من انتمائها إلى مجال الأخبار - تتميز بمكونات تضي عليها صفة الاستقلالية عن جنس الخبر إذ إنها تعدّ «جنساً قائماً بذاته صالحاً للدراسة على حدة»⁽¹⁾. لقد حدّد الباحث ثلاثة روابط على الأقل تشدّ كتاب البخلاء إلى المدونة الخبرية: رابطة التسمية، ورابطة السند، ورابطة القصصية.

- رابطة التسمية: لا يميّز الجاحظ بين مصطلحي: النادرة والخبر؛ فهما في نظره مفهومان متقاربان من حيث المعنى وخصوصاً حين تردان عنده في صيغة الجمع «النوادر»، «الأخبار».

- رابطة السند: لقد لاحظ الباحث أنّ السند «شائع» في كتاب البخلاء؛ إذ إنّ الجاحظ يسلك فيه طرائق مختلفة. فقد يحيل السند إلى أشخاص وأعلام مشهورين ومعروفين بأسمائهم، وقد يحيل إلى راوٍ غير معروف أو أنّ الجاحظ تعدّد التستر عليه، وقد يلجأ الجاحظ إلى «التصرف في فنون الإسناد»⁽²⁾.

- رابطة القصصية: يرى الباحث أنّ «القصصية» صفة ثابتة في الخبر متغيرة في النادرة بحيث تصبح مقوماً ثانوياً فيها⁽³⁾.

ويرى أنّ النادرة والخبر يشتركان في مكونين هما: قصر الحجم وبساطة التركيب، كما أنّهما معاً يعتمدان على السند والقصصية مكونين نوعيين، بيد أنّ النادرة قد تستغني عن السند. أمّا ما يميّز النادرة عن الخبر فهو «الهزلية» التي يفقر إليها الخبر وتتوافر في النادرة.

يرى الباحث أنّ النادرة لا تكون نوعاً أدبياً إلاّ بحضور مكونين أساسيين هما: القصصية والهزلية؛ وأمّا الاقتصار على الهزلية فإنّه غير كافٍ لإقامة النادرة: «إذا كانت

(1) - المرجع نفسه، ص 94.

(2) - المرجع نفسه، ص 97.

(3) - المرجع نفسه، ص 98. ذلك أنّ مقصد النادرة في النهاية قد يختلف عن مقصد الخير، بين الطرافة/الإضحاك والإفادة.

نادرية النادرة تكمن في هزليتها وقدرتها على إثارة ضحك المتقبل، فإنها إذا ما اقتضت على شرط الهزلية فقدت أهم مقوماتها إذا أضيفت إلى أجناس أخرى من قبيل: الأحاديث والأخلاق والأشوات والمتلفطات الشبيهة بها من قبل هزلتها لا أكثر»⁽¹⁾.

وعلى هذا الأساس لا يقبل فرج بن رمضان تصنيف مجموعة من نصوص البخلاء الهزلية في إطار النادرة لأن «النادرية» أو «الهزلية» تتحققان في البخلاء فعلياً من دون اللجوء إلى القصصية. أما محمد الخبو فإنه ينظر إلى النادرة باعتبارها نمطاً خطائياً وليس نوعاً أدبياً، إذ يرى أنها تشمل كل النصوص الهزلية في كتاب «البخلاء» كالقصص، والأقوال المطولة في شكل رسالة أو ردّ أو وصية، والأقوال المتبادلة من نوع ما جرى بين أبي عثمان والحزامي ومن نوع ما دار بين الجاحظ ومحمد بن أبي المؤمل. ومن هذا المنطلق، يظهر - في نظر الباحث - أن كل نصوص كتاب «البخلاء» تندرج ضمن النّوادر لتوفّرها على عنصر الهزلية.

لقد انتهى الباحث فرج بن رمضان إلى الإقرار بأن كتاب البخلاء مصنف أدبي يضم أجناساً خطابية مختلفة الملحّة الخاطفة، النادرة المكتملة، النادرة التي تتضمن رسالة، الرسالة المستقلة، مقاطع وصفية تصور نماذج هامشية، فقرات في الحديث عن صنوف الأطعمة، كما أشار فرج بن رمضان إلى أن التدخل بين مواد أدبية متنوعة يشكل سمة في تكوين بلاغة الرسالة الأدبية عند الجاحظ.

وبالإجمال تستند مقاربة الباحث، بشكل معلن أو مضمّر، إلى خلفية نظرية غربية تستلهم بعض مناهجها، وقد تستقدم أحياناً بعض نتائجها لكنها، وهو ما يحسب لفرج بن رمضان، لم تسقط في القراءة الاستنساخية لمقررات نظرية الأنواع الغربية، بل حاورتها وأفادت من مناهجها ونتائجها، فكان حاصل ذلك، في الأعم الأغلب، قراءة واعية للتراث السردي الجاحظي/العربي والمتحصل، من النظر في قراءة فرج بن رمضان التي محضها صاحبها للمسألة الإجناسية، إقرارها بالجدوى العلمية والمنهجية التي تعود على الأدب العربي، «وهو الذي لم يعرف - أي الأدب العربي - نظرية دقيقة لأنواع الخطاب، من البحث في طبيعة أنواعه وفي تاريخها وصلات بينها؛ فمن شأن هذا الضرب من البحث، متى أحكمت مناهجه، أن يقود إلى ضبط خارطة دقيقة تظهر وضع الأنواع في

(1) - المرجع نفسه ، ص 122.

أدب العرب قديما وحديثا، ما أهمل منها فتلاشى، أو عاود الظهور، أو مازال منها مستمرا، مع كشف الأسباب التي حكمت، في الحالين، مسير (ومصير) الأنواع على صعيدي الإنتاج والتقبل. ولا منازعة في أن الباحث الأدبي يتحصل من هذا الصنف من الدرس على فوائد لا تنكر، ليس أقلها المساهمة في قيام (حفريات) قد تقود إلى استكشاف التضاريس الأنواعية في منطقة عربية منسية»⁽¹⁾.

و الحاصل مما سبق بيانه هو المقاربة الأجناسية الحديثة للأدب العربي القديم مرتبهة إلى مدى بعيد فضلا عن المساءلة المستمرة لمفهوم الجنس بجملة من العمليات الأساسية المتصلة بالموضوع. نفسه وفي مقدمتها نقد نظام الأجناس العربية من أجل إبراز صبغته الاختزالية المقترنة بالمركزية الشعرية ومن ثم إبراز عدم مطابقتها ولا إجرائيته في توصيف واقع المدونة الأدبية المتعين وإن في الحدود التي باتت محل اتفاق تقريبا مع نهاية القرن العشرين أما إذا وسعنا دائرة النظر بناء على إعادة التفكير في حقيقة العلاقة بين الأدب والعالم والأدب الشعبي وشبه الشعبي في الثقافة العربية عموما، وفي اتجاه يثبت أنها ليست على ما يظن من وضوح ولا من قطيعة خاصة، فهناك سيتبين أن المدونة العربية القديمة القابلة للانضواء تحت طائلة الأدبية والقابلة تبعا لذلك للتجنيس أوسع وأشد تنوعا مما توحى به المصطلحات والمفاهيم والحدود المتواضع عليها

2- الخطاب السردى ومقولات البلاغة الجديدة (محمد مشبال):

لعلنا لا نجانب الصواب إذا اعتبرنا أن فحص التراث من منظور الإحراجات المنهاجية التي عرفتها مختلف النظريات الأدبية و الحجاجية الحديثة ، قد شكل ملمحا بارزا في مشهدها النقدي المعاصر، وكان من نتائج ذلك ظهور محاولات رائدة لا تخفي سعيها إلى بناء بلاغة عامة وجديدة تعنى بدراسة كل أشكال الخطاب الاحتمالي المؤثر في بعدها التخيلي الأدبي والحجاجي المنطقي^(*)؛ وتبعا لما تقدم ، نقر ها هنا بوجود

(1) - مصطفى الغرافي: في مسألة النوع الأدبي، دراسة في إجراءات المفهوم وتطبيقاته في الغرب وعند العرب الجاحظ، مجلة عالم الفكر، مجلة دورية محكمة تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، العدد 1، المجلد 42 يوليو - سبتمبر 2013، ص 163.

(*) - للوقوف على الخلفيات الابستيمية المؤسسة لهذه الأسئلة ينظر: الندوة الموسومة بـ نحو بلاغة رحبة لتحليل الخطاب" قراءة في المشروع العلمي للدكتور محمد مشبال الوطنية التكريمية

طروحات تداولية وحجاجية في النقد العربي المعاصر وبخاصة في المغرب، يتجلى في ما يروج من مطارحات وما يتداول من كتب في الموضوع ، هذا ولا يخفى على أهل النظر أن «التأليف البلاغي في المغرب عرف خلال الربع الأخير من القرن العشرين وبداية الألفية الثالثة انتعاشا ملحوظا بسبب تعدد الجامعات وما واكبه من إصلاح انبثقت عنه تكوينات جديدة ومجموعات بحث في البلاغة وتحليل الخطاب، هذا إلى جانب انفتاح عدد من الباحثين على الدرس البلاغي في الغرب»⁽¹⁾.

إنه لمن قبيل المجازفة، والمهمة الشاقة الحفر في التراكم القرائي الضخم الذي قدّمه الباحث محمد مشبال ولهذا سيجاول هذا البحث الوقوف على موقع الجاحظ ضمن دراسات الباحث^(*)، وهكذا سنحاول تتبع المتصورات الجوهرية لقراءة القراءة، بوصف هذه

للدكتور محمد مشبال والمنعقدة بتاريخ 24 . 25 فبراير 2016 والذي نظمه مختبر الترجمة وتكامل المعارف، كلية الآداب والعلوم الإنسانية-مراكش، وينظر أيضا: مجلة البلاغة وتحليل الخطابمجلة فصلية محكمة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.

(1)-محمد اليملاحي: أسئلة الفكر البلاغي في المغرب، مقارنة لمشروع محمد العمري، ضمن البلاغة وتحليل الخطاب إعداد وتنسيق: محمد مشبال، منشورات ضفاف، منشورات الاختلاف، ط2014، 01، ص241

(*)- لعل أبرز دراسات الباحث: (وهي مرتبة حسب تاريخ صدورها ترتيبا تصاعديا):

- بالنسبة للمقالات:

. سمة التضمين التهكمي في رسالة الترتيب والتدوير، مجلة فصول القاهرية، العدد 03، سنة 1994.

. جماليات النمط الواقعي في الأدب، مجلة مواسم، العدد04، 1995.

. البلاغة ومقولة الجنس الأدبي، مجلة فكر ونقد العدد 25، يناير 2000، وقد نُشر هذا المقال

أيضا في مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد01، يوليو/سبتمبر، 2001، المجلد 30.

. التصوير والحجاج نحو فهم تاريخي لبلاغة نثر الجاحظ، مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد 02،

أكتوبر - ديسمبر، 2011، المجلد 40.

. السرد العربي القديم والغربة المتعلقة، مجلة الراوي، العدد25، سبتمبر2012.

الدراسة ستنشغل على المتن النقديّ، وليس على النصّ السرديّ وسنركز بحثنا على الدراسات الآتية:

- بلاغة النادرة 2006

- البلاغة والسرد، جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ 2010

- السرد الحجاجي في رسائل الجاحظ 2013

ولعل تركيز الباحث محمد مشبال على الجاحظ واعتباره نقطة البداية في كثير مما كتبه ينطلق من وعيه بقيمته التاريخية والمعرفية والمنهجية ، فزمن الجاحظ كما يقول عباس ألرحيلة « صادم، ما أطلق عليه، حركة التدوين، (15-250هـ)، إذ انتقلت فيه الثقافة الإسلامية العربية من عنفوانها الشفهي، على أسنة البلغاء وأهل العلم في المحافل

. السرد الحجاجي في رسائل الجاحظ، ملف العدد: الخطاب السردي وآليات اشتغاله، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، مجلة فصلية محكمة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، العدد 2، 2013.

- أما بالنسبة للكتب فهي:

.بلاغة النادرة، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء - المغرب، 2006.

. البلاغة والسرد، جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة عبد الملك السعدي، تطوان- المغرب، 2010.

. مقارنة بلاغية حجاجية لرسالة (فخر السودان على البيضان) ضمن كتاب بلاغة النص

التراثي، مقاربات بلاغية حجاجية، إشراف محمد مشبال، دار العين للنشر، ط01، 2013.

أم الترجمات فهي على النحو الآتي:

. طوني موريسون: اللعب في الظلمة والبياض والخيال الأدبي، ترجمة محمد مشبال، الصورة.

مجلة النقد الأدبي و البحث الفلسفي، العدد الثالث، شتاء 2000.

. م . غلوينسكي: الأجناس الأدبية، ترجمة محمد مشبال، الصورة. مجلة النقد الأدبي والبحث

الفلسفي، العدد الرابع، شتاء 2002.

. سيمور شتمان: الحجاج والسرد، ترجمة عبد الواحد التهامي العلمي، مراجعة مشبال. الصورة.

. مجلة النقد الأدبي والبحث الفلسفي، العدد الخامس، شتاء، 2003 .

إنّ الهدف الأسمى الذي رامه الباحث هو إعادة صياغة البلاغة لتصبح صالحة لمقاربة

وتحليل الخطاب بوصفها الأنسب لقراءة المدونة الأدبية القديمة.

والمنتديات والمساجد، إلى تسجيلها في الأوراق، وانطلقت فيها صناعة التأليف، فكان أبو عثمان الجاحظ أحد أعلام التأليف الذين واجهوا تجربة تصنيف الكتب أثناء انطلاقة حضارة الإسلام، وممن وطدوا هذه التجربة ورسخوها في حقل الأدب بشكل خاص. وهي مرحلة تاريخية دخلت فيها اللغة العربية في بلورة هوية إسلامية، وبناء ثقافة إنسانية، فوقعت في لحظتي اختبار وتحدد، بدأت خلالهما تستجمع تاريخها الثقافي، وتتطور لتعبر عن معترك العصر وما يحفل به من تحولات حضارية ضخمة في جوانبها المادية والفكرية»⁽¹⁾.

تكتسي دراسات محمد مشبال حول الجاحظ أهمية بالغة بالنظر إلى موضوعها وما تثيره من قضايا نقدية وتاريخية وفكرية وحضارية، ومن هنا فقد تتعدد أوجه النظر فيها، وقد تتنوع زوايا قراءتها، لأنها دراسات فيها من عمق النظر، وفيها من الاجتهادات والنظرات العميقة ما يجعلها جديرة بالتأمل والقراءة الفاحصة، بالإضافة إلى ما فيها من مواقف ومناقشات تثير أنواعا من الخلاف الفكري، ومن هذا المنطلق يمكن القول إن لهذه الدراسات طبيعة خاصة، أو لنقل إن لها وجها ظاهرا وآخر باطنا لعله هو الهدف الذي دفع بمحمد مشبال إلى الكتابة والتأليف، وأقصد هنا بالوجه الباطن تلك الأبعاد الجدلية والمناقشات العقلية الهادئة التي أدارها في ثنايا دراساته سواء تلك التي تتعلق بمسألة إمكانية قراءة النص الجاحظي من منظورين تداولي وجمالي، أو تلك التي ترتبط بمنهجية الجاحظ وأسلوبه في الكتابة، أو غيرها من القضايا التي عالجها في مختلف أبحاثه كقضية الحجاج و الهزل، والواقعية، في سرد الجاحظ.

أ-سؤال التجنيس:

أفصحت مقاربة محمد مشبال المعنونة بـ«بلاغة النادرة»⁽²⁾ عن طموح في الإسهام في تجنيس النادرة، وقد رأى محمد مشبال في مستهل بحثه أن قراءة الباحث أحمد بن

(1)-الكتاب وصناعة التأليف عند الجاحظ، الوراقة الوطنية، مراكش، 2004، ص 11-12.

(2)- محمد مشبال: بلاغة النادرة، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء - المغرب، 2006. و قد كرس الباحث هذه القراءة لدراسة الحكي عند الجاحظ، أو «الأديب البارع» كما ينعته، ولا تخلو هذه القراءة من أهمية ما دامت قد حاولت «الإنصات» إلى نصوص الجاحظ، مثلما حاولت الاستناد إلى خلفية ترمي - على حد تعبير صاحبها - إلى «الوعي بخصوصية التفكير الجمالي

محمد أمبيريك الموسومة بـ"صورة بخيل الجاحظ الفنية من خلال خصائص الأسلوب في كتاب البخلاء"⁽¹⁾ طرقت باب البلاغة دون أن تفلح في تفسير الوظائف البلاغية الجمالية للنص الجاحظي، ومن ثمّ فقد قدم الباحث جملة من الاعتراضات على منهج الباحث نجملها في النقاط الآتية⁽²⁾:

- أ- كشف منهج الباحث أزمة الأسلوبية الشعرية عندما تتصدى لتحليل نصوص سردية؛ فقد اعتمد في تحليله الصور الجزئية المجتثة من سياقها النصي، وكأنه قد حصر اهتمامه في تقنين القواعد وصياغة المعايير دونما تفسير للصور أو تواصل مع ما تحتويه النصوص من إمكانات فنية. تجلّى ذلك على سبيل المثال في تناوله لأسلوب المقابلة^(*)، حيث لم يتجاوز حدود استخلاص الوظائف البلاغية الضيقة ولم يخرج عن نطاق معايير بلاغة الشعر.
- ب- لا تنتمي النصوص المعتمدة في التحليل إلى نوع أدبي واحد؛ فمادة التحليل مستقاة تارة من رسائل البخلاء وأقوالهم وتارة أخرى - وإن كانت قليلة - من نواذر

الأدبي العربي الموروث» ص 07. ويتوسل صاحب «بلاغة النادرة» بـ«أدوات تحليلية» نجد في طليعتها «الصورة» و«السمة». وهما مفهومان بارزان في مقاربة محمد مشبال، وفي هذا المنظور يبحث في «بلاغة النادرة» في خطاب الجاحظ المتعدد الأبعاد والأنواع، ويتصور أن النادرة هي الإطار الموحد أو التسمية الأكثر شيوعاً والأقوى تمثيلاً لهوية حكايات الجاحظ بتنوعاتها وتسمياتها التي أطلقها الجاحظ نفسه على حكيه. ص 11. وفي ضوء الكتاب يستخلص مشبال أن بلاغة النادرة تفيد فناء السرد (بدلاً من هيكّل الشعر)، والعري (بدلاً من البديع)، والفكاهة والسخرية والملاحظة. بيد أنّ الملاحظة التي قد تفرض نفسها هنا هي أن الجاحظ لم يكن يفكر بـ«الصور» و«السمات» فحسب، وإنما كان يفكر في التاريخ أيضاً أو أن التاريخ كان يسند هذه الصور والسمات، فحكي الجاحظ كان محكوماً بـ«نسق ثقافي» أو «رؤية ثقافية عميقة».

(1)- أحمد بن محمد أمبيريك: صورة بخيل الجاحظ الفنية من خلال خصائص الأسلوب في كتاب البخلاء، دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية) بغداد والدار التونسية للنشر، سنة 1986.

(2)- محمد مشبال: بلاغة النادرة، ص 20.

(*)- المقابلة هي الجمع بين أكثر من ضدين، أو الجمع بين معنيين متضادين في الكلام.

الأفعال أو النوادر السردية، وهو ما يفيد أن الباحث غير معني ببلاغة السرد أو بلاغة النادرة، بل غايته البلاغة العامة، أو بلاغة الخطاب، ولأجل ذلك كانت الرسائل والأقوال المادة الأقرب إلى طبيعة منهج الدراسة.

ت- تدل "صورة البخيل الفنية" في نهاية التحليل، على مجموع أفكار البخيل ومبادئه واعتقاداته، إنها - وفق منظور الباحث - مفهوم عام غير مرتبط بالتكوين الفني للنص⁽¹⁾.

وهكذا انتهى محمد مشبال إلى بيان أن الباحث محمد أمبيرك لم يتخلص من سيطرة موضوع البخل على منهج تحليله، بدل الصورة بمفهومها الجمالي والبلاغي، ولأجل ذلك لم يستغرب محمد مشبال تلك الخلاصة التي انتهت إليها البحث، وهي أنّ الصراع بين البخلاء والأسخياء يشكل لب الكتاب وجوهر موضوعه⁽²⁾، ألا تتناقض هذه الخلاصة الموضوعاتية مع المنهج المعلن عنه في عنوان الكتاب؟

وتأسيساً على هذا الفهم، يذهب الباحث محمد مشبال إلى أنّ النادرة نوع سرديّ ينطوي على سمات ومكونات. فالنّادرة - حسب المؤلف - جنس أدبيّ مخصوص ينزع منزع الطرافة والفكاهة والضحك⁽³⁾. ويقصد الباحث بالمكونات، العناصر الضرورية التي يقوم عليها جنس النّادرة وهي: الطرافة، وصورة اللّغة، والعبارة الختامية. وتعدّ الطرافة مكوناً بلاغياً في جنس النّادرة، حيث تعمل مختلف الوسائل السردية على تشكيله؛ فلا وجود لجنس النّادرة من دون هذا المكون.

وتعني «صورة اللّغة» اقتران الكلام بصاحبه ومستواه الاجتماعيّ. حيث تعدم النّادرة إلى التّنوع الأسلوبيّ، عندما تدخل في تكوينها البلاغيّ لغات المتكلمين. وتنتهي كلّ نادرة من نوادر الجاحظ بـ«عبارة ختامية» تعمل على إثارة الضحك والموقف المتوتر، وتتبنى العبارات الختامية على المفاجأة والتلاعب بالألفاظ والمهارة في التعبير عن الموقف.

(1) - ينظر: أحمد بن محمد أمبيرك: صورة بخيل الجاحظ الفنية من خلال خصائص الأسلوب

في كتاب البخلاء، ص 97.

(2) - المرجع نفسه، ص 117 - 118.

(3) - المرجع نفسه، ص 71.

بيد أن هذه المكونات التي تحدّد جنس النّادرة لا بدّ لها من سمات تسندها، إذ لا يقوم بالعناصر الضّروريّة فقط، ولكن أيضاً بالعناصر الثّانويّة التي تحضر وتغيب، وهو ما يسمّيه المؤلّف بالسّمات كـ«الحجّة الطّريفة» وهي حجّة تتناقض مع مقتضيات المقام. و«الحيلة» التي تتجسّد في مواقف وأفعال طريفة، و«التّعجيب» الذي يقوم على جملة من المظاهر، ويستدلّ المؤلّف ببعض النّوادر التي تصوّر أعاجيب بخلاء الجاحظ، كنادرة أبي عبد الرّحمن المعجب بأكل الرّؤوس، ونادرة ليلي النّاعطيّة التي ترقّع قميصاً لها وتلبسه، حتّى صارت لا تلبس إلا الرّقع...، ثمّ نادرة المغيرة بن عبد الله.

ويؤكد المؤلّف أنّ هذه السّمات الثّلاث (الاحتجاج والحيلة والتّعجيب) لا ينفصل بعضها عن بعض، هذا إلى جانب سمة أخرى من سمات الهزل في أدب الجاحظ عامّة ونوادره خاصّة، وهي ما أسماه بـ«التّضمين التّهكمي».

و«التّضمين التّهكمي» سمة أسلوبية يتضافر في تكوينها مقومان بلاغيان، يتمثّل المقوم الأول في «التّضمين» والثّاني في «التّهكم».

وتعدّ «المقابلة» سمة أخرى في النّادرة، وهي تتجلّى في بعض النّوادر في التّقابل بين فخامة الأسلوب وبين تفاهة الموضوع وضالّة قيمته، وتقابل يتمثّل في تجاوز محاسن الشّيء ومساوئه، وتقابل السّلامة، والتّقابل بين موقفين أو مشهدين تصويريين.

يرى الباحث أنّ الجاحظ صارح فكرة عجز اللّغة عن تمثيل الأشياء وأخذ يعتصر ما تختزنه اللّغة من طاقة تصويريّة كفيّلة بمضاهاة الرّؤية العيانية؛ فالجاحظ كان بارعاً في التّصوير اللّغويّ القائم على تشغيل جميع مظاهر الطّاقة اللّغويّة التي يتطلّبها موضوع مخصوص كتصوير الأكل الشّه⁽¹⁾.

فهذه الشواهد هي خلاصة تصور الباحث الذي يبدو أنّه يوسّع البلاغة لتعانق رحابة الأعمال الأدبيّة بشتّى أشكالها وأنواعها وأنماطها. هذا الطّموح العلميّ إلى تأصيل البلاغة الذي عبّر عنه في كتاباته الأخرى، هو ما كانت ترومه الاجتهادات البلاغيّة العربيّة الحديثة مع أمين الخولي الذي لا يفتأ يستلهمه الباحث في أكثر من مناسبة.

(1) - المرجع نفسه ، ص ن.

أ- البلاغة والسرد، جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ:

«بقدر ما ينتقل نص ما من الوظيفة التعليمية إلى الوظيفة الجمالية، فإنه يتوخى تسليم المبادرة التأويلية للقارئ. إن حاجة النص إلى من يساعده على العمل حاجة ضرورية.»

أومبرتو إيكو

Lector in Fabula, p. 64

توقف الباحث محمد مشبال في قراءة أخرى موسومة «البلاغة والسرد، جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ»، عند الكتابات التي زوجت في مقاربتها لآثار الجاحظ بين البعدين التخييلي والتداولي وعمل على تجلية هذا الملمح فيها، معيدا صياغة الإشكال: هل يتسع نثر الجاحظ للوظيفتين التخييلية والتداولية؟، ومن ثمة فقد سعى مشبال إلى إعادة بناء مفهوم بلاغة نثر الجاحظ تاريخياً؛ أي على نحو ما شكّلها وعي القراء الذين تعاقبوا على قراءة الجاحظ، والحكم على كتبه، ونثره منذ القرن الثالث الهجري حتى اليوم. ينطلق محمد مشبال من طرح مفاده أن النظر في النصوص القديمة يقتضي تحقق نمط من الوعي القرائي النقدي (La conscience Lisante critique)؛ متمم بتعدد واجهاته، وتنوع استراتيجياته حتى يتمكن من الانتشار في أكثر من اتجاه معرفي ويقدر على مواجهة الأسئلة المخصصة التي يفرزها تراثنا القديم: ومن ثم يطرح الباحث مجموعة من الأسئلة: ما هي طبيعة المعالجة التي يمكن أن نرومها؟ هل نحلّ ذلك النص، أم نشرحه، أم نؤوله أم نقاربه؟ هل نتعامل معه مثلما نتعامل مع نصوصنا المعاصرة؟ ثم بأيّ أداة أو رؤية نفعل ذلك: بواسطة وسيلة عربية معاصرة أم بالاستفادة من الملاحظات الجمالية والالتفاتات النقدية القديمة الموثقة: نلتقطها ثم نستثمرها استثماراً حداثياً؟ هل نقارب ذلك النص في ضوء مفاهيم نظريات التلقي والأجناس الأدبية، والبلاغية، والأسلوبية الغربية، أم بمنهج نقدي عربي؟

تنهض أطروحة محمد مشبال في هذا الكتاب على خطة منهجية محكمة تتضح معالمها في التأطير، وتوزيع الفصول والمفاهيم؛ لقد اعتمد الباحث على اجتهادات ياكبسون خاصة "الوظيفة المهيمنة"، وتصورات موكاروفسكي Mocarofski حول "تنافس الوظائف" مداخل لتسوية أطروحته المتجهة إلى تقرير الجدل، مبدأ بين الحجاج

والتصوير في أخبار الجاحظ، وقد استقام للباحث استنادا إلى أطروحة موكاروفسكي حول الخاصية المزدوجة للعمل الفني باعتباره علامة مستقلة وتوصيلية في نفس الآن أن يُعد أخبار الجاحظ مزوجة بين الوظيفتين: الحجاجية والتصويرية^(*).

إن الباحث محمد مشبال لا ينطلق من مصادرة قبلية جاهزة يسعى بمقتضاها إلى إبراز ما يتوفر في نصوص الجاحظ من عناصر الحجاج والتخييل، بل يبني دراسته مركزا على إنطاق الخطاب السردي الجاحظي من داخله واستجلاء آلية إنتاجه المعرفة العقلية والتصويرية في آن؛ لقد بين فحص الباحث أن أخبار الجاحظ تعمل على تثبيت العقيدة، وتقديم المعرفة، وتهذيب الأخلاق، وإمتاع القارئ؛ فالحيوان في كتاب الجاحظ "الحيوان" سمة بلاغية تدل على خالق ومخلوق، أي ما يطلق عليه الجاحظ النصبية، أو بالحالة الدالة.

(*) - يتنزل طرح الباحث في سياق عودة البلاغة إلى مجال الدراسات والنقد الأدبيين، وهي العودة المظفرة التي دشنها بيرلمان، ورولان بارت، وبول ريكور، وأوليفي روبول، وشارل مايير في مجال البلاغة العامة، وستيفان أولمان، وبييرسي لويوك، وواين بوت في مجال بلاغة السرد، وبهذا بحثت دراسة مشبال واهتمت بالعللاقة بين السرد والحجاج مستندة في ذلك إلى التمثيل الحكائي وأنواع الحجج المرتبطة بالحياة الثقافية والاجتماعية، والحال هذه فقد بدا لنا أدب الجاحظ - حسب المنظور الحجاجي لمشبال - أدبا عقليا بامتياز يهتم بالحجة، ويعلي من شأنها، ويأخذ في حساباته مواقف الخصوم، وتوجهاتهم. كما بدا لنا النص النثري الجاحظي نصا ترسليا، يسخر جملة من الطاقات الإقناعية لتثبيت الموقف، وإحداث التغيير في الواقع، من دون أن تعوزه الآليات اللغوية، والفكرية الكفيلة بتحقيق مقاصده. وإجمالا فقد سعى الباحث في دراسة أخبار الجاحظ، إلى المزوجة بين التفكير النظري في أحد الأجناس الأدبية السردية القديمة؛ وذلك بوصف مكوناته الثابتة، وسماته المتغيرة من جهة، وبين تأويل نصوصه المفردة، والكشف عن سماتها المخصوصة، ودلالاتها وأبعادها المتميزة من جهة ثانية. ولعل في هذه المزوجة ما يحقق التكامل بين مختلف وجوه الدراسة الأدبية، ويضعها على الطريق الصحيح.

ب- حاجية الرسائل بين المكون الخطابي والسياقي:

يقدر البحث أنّ اختيار الباحث محمد مشبال للرسائل بالذات (تخصيصاً) يعودُ إلى ما في مقام التّرسّل من تعزيز لحجاجيّة الخطاب مطلقاً، ومن تعزيز لحجاجيّة مكتوبات الجاحظ تحديداً. (*)

لقد نظرت مقارنة الباحث إلى رسائل الجاحظ على أساس أنّها أنسب المدونات لتطبيق نظرية الحجاج أو البلاغة الجديدة على اعتبار أنّ مكتوبات الجاحظ خطابات لرجل «يحمل مشروعاً في البلاغة (نظرية البيان) وفي المعتقد (الاعتزال) وفي التّواصل (علم الكلام) وفي الكتابة (تنفيذ هذا المشروع بأبعاده)؛» (1). ومن هنا يتجلى مقصد الباحث في تحليل الرّسائل ذات الطّابع الحجاجيّ وبيان مقاصدها،

انطلق الباحث محمد مشبال في بحث موسوم بـ"السرّد الحجاجي في رسائل الجاحظ" من اعتبار أنّ رسائل الجاحظ تحمل تداخلاً بين السرّد والحجاج؛ فالسرّد بوصفه مجموعة من الأخبار يشكل في تقدير الباحث «إحدى التّقنيات الحجاجيّة التي اعتمدها الجاحظ في بناء بلاغة رسائله، فالجاحظ لجأ في عديد من هذه النّصوص إلى سرد وقائع وأفعال ليُحاجج بها دَعَاوَاهُ وَيُثَبِّتَ بِهَا صَدَقَ أَحْكَامَهُ. بيد أنّنا لا نقصد هنا البنية الهيكلية أو الحبكة التي يمكن تجريدها من الأخبار المسرودة فقط. ولكن المقصود أيضاً البنية

(*)- يقدر البحث للباحث حسن تبصرته بالتفاتته إلى الحدود الفاصلة بين مقامات الرسائل، فهي دقيقة جداً بسبب التّداخل الشّديد بين هذه المقامات في مكتوبات المجتمع الإسلامي آنذاك، وهو ما وقف عليه الباحث محمّد العمري في كتابه بلاغة الخطاب الإقناعي، إذ يصعب التّفريق «بين ما هو سياسي وما هو ديني واجتماعي لطبيعة الإسلام الذي لا يفرّق بين الدّين والدّولة، ثمّ إنّ العلاقات الاجتماعيّة هي في غالب الأحيان علاقات دينيّة، وقد أدّى هذا إلى الخلط حين تكون المناسبة من طبيعّة، والمحتوى من طبيعّة مخالفة، فكثير من الخطب والرّسائل التي دُعيت اجتماعية أو إخوانية، يمكن اعتبارها دينيّة وعظيمة وتعليميّة»، محمد العمري، بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربيّة، الخطابة في القرن الأوّل نموذجاً، أفريقيا الشّرق، الدّار البيضاء، ط02، 2002، ص 40.

(1)- علي محمّد علي سليمان: كتابة الجاحظ في ضوء نظريّات الحجاج، رسائله نموذجاً، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنّشر، ط1، 2010. ص 14.

الخطابية اللغوية التي تتشكل بواسطتها الحكمة السردية داخل نصّ الرسالة. وبناء عليه، فإنّ حاجيّة السرد لا تؤوّل دائماً إلى هذه البنية السردية الهيكلية المتمثلة في تتابع الوقائع وتحوّلها فقط، بل تؤوّل أيضاً إلى البنية الخطابية المتمثلة في جملة من الصيغ اللغوية والصّور الأسلوبية والتقنيات الحجاجية التي تمتزج بالسرد، وتؤلّف حجاجيته⁽¹⁾.

ولعل استبطان الباحث لذلك الاختلاف في تشكّلات السرد الحجاجي بين رسالة «مناقب الترك»^(*) ورسالة «القيان»^(**) إنما يرتد إلى اختلاف مقاميهما الخطابين أو سياقيهما التواصلين؛ فرسالة «مناقب الترك» كما بينه الباحث تقوم على خطاب مدّحي وبناء صورة نموذجية للجُند التُرك، بينما تقوم رسالة «القيان» على خطاب يُنازع خطاباً آخر سعياً إلى تقويضه.

هذان السياقان المختلفان في تقدير الباحث هما «اللذان يفسران سبب اعتماد السرد البنية الخطابية اللغوية بدرجة كبيرة في توليد حجاجيته في الرسالة الأولى، بينما اعتمد في الرسالة الثانية علاقته بالمقام أساساً. فسياق المدح يقتضي من المتلقّي سرد مناقب الممدوح والإسهاب في وصف خصاله واستثمار الصيغ اللغوية لتشكيل صورة نموذجية عنه في ذهن المتلقّي، أما السياق الحجاجي الجدلي فيقتضي تقديم الحجج

(1) - محمد مشبال: السرد الحجاجي في رسائل الجاحظ، ملف العدد: الخطاب السردى وآليات اشتغاله، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، مجلة فصلية محكمة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، العدد 2، 2013، ص 85-86.

(*) - يتجاوز السرد في تشكيل حجاجيته في هذه الرسالة، الاعتماد على ارتباطه بالمقام التلّفظي الذي ورد فيه، إلى اعتماد بنية خطابية مؤلّدة للحجاج، من قبيل الوصف وما يتعلّق به من صيغ المقارنة ووجوه أسلوبية ومواضع قيمة مشتركة.

(**) - أتجه السرد بالأساس في هذه الرسالة إلى تشكيل حجاجيته معتمداً صلته بالمقام التلّفظي أساساً؛ فالأخبار الواردة في هذه الرسالة لا تمثّل تشكّلات خطابية حجاجية بذاتها. من هذا اعتمادها، في توليد معانيها البلاغية، على السياق الذي ترد فيه؛ أي إنّنا ينبغي أن ننظر إليها بوصفها جزءاً في علاقة حجاجية يصوغها النصّ.

لإثبات صدق الدَّعوى ودحض الدَّعوى المناقضة، ومن هنا كان تقديم الوقائع والأفعال بواسطة الأخبار المرويَّة من أدوات الإقناع»⁽¹⁾.

وهكذا، نصل مع محمد مشبال إلى أن تحليل تقنية السرد الحجاجي ينبغي أن يراعي الإطار النوعي الذي تشكَّلت في سياقه. إنَّها تكتسب خصوصيَّتها من نوع الخطاب الذي تندرج فيه.

- تمظهرات الحجاج في رسالة «مناقب الترك»:

اقتصر تحليل الباحث محمد مشبال للخطاب الاحتفالي في رسالة «مناقب الترك» على النظر في مجموعة من الأخبار التي ضَمَّنها الجاحظ نسيج نصِّه، وهي أخبار تستمد حجاجيَّتها من تقديمها للوقائع التي تُنْبِئُ صورة الأتراك الحربيَّة، ومن بنائها على مواضع قيِّمة مُتَّفَقٍ عليها في العصر، كما تستمدُّها من القيمة التي يحظى بها السارد المُتَلَفِّظُ بالخبر عند المتلقِّي، ومن نسيجها الخِطابيِّ اللُّغويِّ.

ينطلق الباحث من طرح مفاده أنَّ انتماء رسالة «مناقب الترك» إلى الخطاب الاحتفالي لا ينفي عنها الطَّاقة الحجاجيَّة التي تجلَّت في استخدام عدَّة تقنيات حجاجيَّة في بناء الخطاب المدحي، وصياغة صورة الأتراك من قبيل سرد مناقبهم ووصف فروسيَّتهم وقوَّتهم القتالية وما يتصل بهما من خصال ميَّزتهم عن غيرهم من الأقوام.

وقف الباحث محمد مشبال على نص من رسالة «مناقب الترك»، مفاده أنَّ رسول المأمون قال لـ«رجال المعدودين المتقدمين في العلم بالحرب [من أصحاب التجارب والمراس، وطول المعالجة والمعاناة] في صناعات الحرب»: «ليكتب كلُّ رجل منكم دعواه وحجَّته، وليُقَلَّ أيُّما أحبُّ إلى [كلِّ] قائد منكم إذا كان في عُدَّتِه من صَحْبِه وثِقَاتِه: أن يلقى مائة تركي أو مائة خارجي؟»⁽²⁾. وقد أجاب القوم جميعاً بتفضيل ملاقاته مائة تركي، إلَّا حميد بن عبد الحميد الذي خالفهم الرأي مُفَضِّلاً ملاقاته مائة خارجي، مُقَدِّماً مجموعة من الحجج التي يدعم بها حكمه.

ترتكز قراءة مشبال للنص السابق على اعتبار أنه يقوم على إطار سردي تتخلَّله جملة من الأقوال القائمة على الأوصاف؛ فإجابة حميد بن عبد الحميد في نظر مشبال

(1)- محمد مشبال: السرد الحجاجي في رسائل الجاحظ، ص 86.

(2)- الجاحظ: رسائل الجاحظ، ج 1 تحقيق: عبد السلام هارون ص 86. ص 30.

تصبح «خطاباً حجاجياً تتسجه مجموعة من الأقوال والأوصاف التي شكّلت معظم مساحة متن الخبر. وحجاجيّة هذا الخطاب تؤوّل إلى أنّه إجابة عن سؤال يحتمل اختلافاً في الرأي والحكم، مما يوجب في هذا السياق تقديم المُجيبِ الحُججِ الكفيلة بتدعيم وجهة نظره أو دعواه. فبنية هذا الخبر قائمة على السؤال والجواب، بخلاف عديد من الأخبار التي يوردها الجاحظ بوصفها إجابات عن أسئلة مُضمّرة تُستفاد من السياق. وهذا من شأنه أن يفسر نزوعه إلى تشكيل حجاجيته بمعزل عن علاقته بسياقه التلّفطيّ. ومثل هذا الضرب من الأخبار تتراجع فيه السردية التي تنحصر في الاستهلال والاختتام، مما يفسح المجال لتنامي خطاب وصفيّ حجاجيّ داخل إطارها السردية»⁽¹⁾.

يشتمل النص السابق فيما يرى مشبال بلاغةً لقيم وخصال حربيةً مُفضّلة عند المتلقّي العربيّ، وقد عدّد النّص هذه الخصال التي اتّسم بها التركي^(*)، لاستحسان صورته وترسيخ قيمها في الأذهان، كما أوّل محمد مشبال النص إلى القيمة التي يحظى بها حميد بن عبد الحميد في الموضوع الذي يدلي فيه برأيه؛ «فهو يمتلك خبرة في الميدان الحربيّ، كما أنّه مُنرّه عن الانحياز إلى أحد طرفي المفاضلة»⁽²⁾. وهي القيمة التي أقرّ بها المؤمنون في نهاية الخبر: «ليست بالترك حاجة إلى حكم حاكم بعد حميد،

(1) - محمد مشبال: السرد الحجاجي في رسائل الجاحظ، ص 86-87.

(*) - من هذه الحجج التي قدمها حميد بن عبد الحميد: «صدق الشّدّة عن أول وهلة، وهي الدفعة التي يبلغون بها ما أردوا، وينالون الذي أمّلوا» و«الصبر على الخبب وعلى مواصلة السفر، وعلى طول السرى وقطع البلاد» كذلك: التركي ليس يحوج إلى أن يفوت؛ لأنّه لا يُطلب ولا يُرام. ومن يروم ما لا يُطمع فيه؟». أضف إلى ذلك اعتماد التركي في القتال على قوّته الذاتية دون الحاجة إلى دوافع وعلل خارجية من قبيل الغيرة أو الغضب أو التدين التي تضطر غيره من المقاتلين. كما أن المقاتل التركي فارس وصاحب خيل. عطفاً على تسانّد المقاتلين الأتراك في الرياسة لإحكام أمرهم وقلة الاختلاف بينهم وابتعادهم عن التّفاخر. **ينظر:** رسائل الجاحظ، ج 1، ص 41-55.

(2) - محمد مشبال: السرد الحجاجي في رسائل الجاحظ، ص 88.

فإنَّ حُميداً قد مارس الفريقين، وحמיד خُرساني وحמיד عربي، فليس للثُهمة إليه طريق»⁽¹⁾. ولعل هذه القيمة أن تنتقل إلى خطابه وتزيد في تصديقه عند المتلقّي.

ويمكننا أن نجل حجاجية نص مناقب الترك كما بينه مشبال في النقط الآتية:

- الوصف الملتبس بأشكال المقارنة التفسيرية/ التقييمية وبعض الصور الأسلوبية^(*)

- السرد والابتعاد عن الموضوعية

- السرد وبلاغة التقابل

- إثارة مشاعر الاستخفاف عند المتلقي

لقد أظهر فحص الباحث محمد مشبال لأخبار في رسالة «مناقب الترك» نزوع السرد فيها بالأساس إلى تشكيل حجاجيته معتمداً البنية الخطابية اللغوية والبلاغية والأسلوبية. وهذا لا يعني أنّ النصوص السردية في هذه الرسالة تستقل بنفسها عن المقام التلّفطي الذي وردت فيه، ولكنها إذا ما قورنت بعديد من الأخبار التي وردت في رسالة «القيان» تمثيلاً، فإننا سنلاحظ أنّ معظم الأخبار التي وردت في هذه الرسالة لا تملك تشكيل غرضها الحجاجي خارج مقامها التلّفطي بوصفها لحظة في متتالية حجاجية أو شواهد سردية على حقائق النصّ أو دعواه⁽²⁾.

- تمظهرات الحجاج في «رسالة القيان»:

يقوم النص في رسالة القيان حسب محمد مشبال على إثبات دعوى ضد دعوى مخالفة؛ أي يبيح النظر إلى النساء ومحادثتهن في مناقضة صريحة لموقف وخطاب آخر

(1)- الجاحظ: رسائل الجاحظ،، مكتبة الخانجي بمصر، 1964-1965. ج1/ ص 56.

(*)- كان على المدافع عن أفضلية الأتراك في القتال الحربي حسب مشبال أن يُقدّم الحجج التي يُثبت بها دعواه، وقد كانت المقارنة أهم تقنية تَوسّل بها في استراتيجيته الحجاجية، حيث تَوخّى منها تقييم الترك وإبراز أفضليتهم وتقديم الأسباب المفسرة لهذا الأفضلية؛ أي إنّ كلّ أشكال المقارنة التي استخدمها المتكلم المُحاجج وردت في سياق الإجابة عن سؤال: لماذا يفضّل الأتراك الخوارج في جملة من الخصال الحربية؟ فالمقارنة هنا تندغم في نسيج الحجاج بالأسباب. إنّها مقارنة تفسيرية تتخذ عدّة أشكال. فقد ترد تارة بصيغة التفضيل نحو «أحمدُ أترأ، وأجمعُ أمراً، وأحكمُ شأنًا»... ينظر: محمد مشبال: السرد الحجاجي في رسائل الجاحظ، ص 89.

(2)- محمد مشبال: السرد الحجاجي في رسائل الجاحظ، ص 93.

يحرّم ذلك. هذا الموقف التواصلّي اقتضى سرد مجموعة من الأخبار المؤيّدّة للدعوى. إنّها بمنزلة الشواهد التي تُثبِتُ صحة القضية، لكنها لا تحمل في ذاتها بالضرورة خطابا حجاجيا؛ فقد لا يكشف النظر في بنيتها الخطابية عن أي غرض حجاجي، وإنما تستمد وظيفتها الإقناعيّة من كونها تقنية من تقنيات خطاب يحاور خطابا آخر ويسعى إلى نقضه. وهي لا تكتسب معناها إلّا في هذا السيّاق الحوارّي⁽¹⁾.

اعتمد الخطاب الحجاجي في رسالة القيان كما وضحته مقاربة مشبال بالأساس على استدعاء شواهد سرديّة تتضمّن وقائع وشخصيات وحوارات تُثبِتُ صحة الدعوى (إباحة النظر إلى النساء) وصدق الحقائق المقدّمة. مرتكزا في كل ذلك على خطاب حجاجي حوارّي تفرض قواعده الإثبات والإقناع بتقديم حجج ملموسة^(*).

نحسّ مع الباحث محمد مشبال في مستوى عميق من المحاورّة أنّ حجاجية السرد الجاحظي تبني تارة باعتماد بنية خطابيّة لا يمكن التغافل عنها، وتارة بالنزوع إلى بناء هذه الحجاجيّة معتمداً علاقته بالسياق الذي يندرج فيه من دون الاتكاء على البنية الخطابية للخبر. (*)

(1) - ينظر: المرجع نفسه، ص 93. وللوقوف على مبدأ الحوارية بوصفه مرتكزا حجاجيا ينظر: حنان المدراعي: المكون الحجاجي في الخبر ضمن كتاب بلاغة النص التراثي، مقاربات بلاغية حجاجية، إشراف محمد مشبال، دار العين للنشر، ط01، 2013. الحوار حسب الباحث قادر على توليد المعرفة عبر محطات يؤدي تلاحقها إلى عملية بناء تكوينية، تبحث عن التلاحم والتناسق بين أجزاء الخبر حتى يظهر نسيجا منسجما ويؤثر في المتلقي بأبعاده الإقناعية المعتمدة على التشويق هدفًا لها.

(*) - بمعنى أن حجاجية هذه الرسالة لا ترتبط ببنيتها الخطابية الأسلوبية ولا ترتبط ببنيتها الداخلية بقدر ما ترتبط بسياقها التلظي؛ أي بجملة النصوص المتوالية والتي شكلت في مجملها شواهد وبنية حوارية على دعوى السارد الأصلي.

1 - (*) - وفي مقاربة أخرى للباحث محمد مشبال معنونة بـ"بلاغة رسالة المفارقة مقاربة بلاغية حجاجية لرسالة 'فخر السودان على البيضان' بلاغة النص التراثي، مقاربات بلاغية حجاجية، إشراف محمد مشبال، دار العين للنشر، ط01، 2013." نلاحظ أن حوارية النص (باختين، الماركسية وفلسفة اللغة) شكلت مبدأ آخر من مبادئ التحليل البلاغي لنصوص الجاحظ، ولقد سعى تحليل هذه الرسالة: "إلى القبض على الاستراتيجية الحجاجية التي انتهجها

عظفا على المرتكزات الحجاجية التي ذكرها مشبال؛ فإن الكثير من أخبار الجاحظ كما وضحته مقاربة حنان المدراعي^(**) تستمد حجاجيتها من الاختصار والاقتصاد في السرد، بحيث لا تعدو أن تكون سؤالاً وجواباً حول حدث معين وإخباراً بواقعة في أسلوب مختصر. وغالبا ما ترتبط هذه الأخبار الموجزة بقضايا نقدية أو أدبية، في قالب ينحو إلى البساطة.

وتبعاً لهذا، تحيل مقاربة الباحث إلى أن الجاحظ استثمر سياسة القول أو قل استراتيجية الحجاج في ترسله بل في جلّ مكتوباته في معالجة القضايا وتقليبها على وجوهها المحتملة، وفحصها سلباً وإيجاباً لتتضح للمتلقّي في صورتين متنافعتين تكشف عن قدرة فائقة في إدارة القول وتوجيه ملفوظاته الوجهة التي تخدم مقاصده ومبادئه. وهكذا، فإن بروز المعيار الحجاجي في تلقي آثار الجاحظ، وإن كان استجابة للأفق البلاغي الذي شكلته هذه الآثار وكشفت عنه القراءات المعاصرة لها، إلا أن إعادة الكشف عنه في الوقت الحاضر لم يكن ليتحقق فيما يقول مشبال «لولا ترسخ هذا المعيار في الثقافة النقدية الحديثة، وتشكيله لأفق توقع فئة عريضة من القراء تشبعوا بمفاهيم البلاغة الجديدة ونظريات النص الحديثة وتحليل الخطاب»⁽¹⁾.

وإجمالاً لا يتصفح متصفح كتب الباحث محمد مشبال إلا ويدرك التجربة النقدية التي تتوي وراء التصنيف، و بشيء من التأمل والتروي يدرك كل مهموم بإعادة قراءة التراث السردية أنّ طرائق المعالجة التي توسل بها الباحث تقع في صميم الهاجس

النص في كليته، وهي استراتيجية اعتمدت الحجاج بذكر أفراد يتمتعون بصفات نافذة من شأنها أن تعلي من قدر السود بوصفهم الفئة العرقية التي ينتمون إليها، على نحو ما اعتمدت الاحتجاج لهم بالقياس المضمّر باعتماد ملفوظات وصفية سردية تعلي من قيمة لون السواد. وقد كشفت هذه الاستراتيجية الحجاجية استناد النص إلى مخزون ثقافي غني من النصوص الأدبية والدينية، وأسماء الأعلام وأسماء البلدان، وهي سمة من سمات النص الأدبي عند الجاحظ...". ص 116.

(**) - للوقوف على الخلفيات الابستيمية المتوغلة في نواميس الجهاز المفهومي والإجرائي لاجبية الخبر. ينظر: حنان المدراعي: المكون الحجاجي في الخبر، 168-169.

(1) - محمد مشبال: التصوير والحجاج نحو فهم تاريخي لبلاغة نثر الجاحظ، ص 159.

التجديدي، سواء أجنح الخطاب إلى الإعلان عن الجدة أم تطف بها واقتصد فيها؛ فقراءة الباحث للنصوص السردية كما وقفنا عليه جاءت في ظاهرها خالصة لمقولات البلاغة الجديدة، وفي حقيقتها مشروع قراءة تفتح على إمكانات متعددة في البحث، وتوحي بمسالك في التناول تختلف عما سلك، وتطرح من الأسئلة أكثر مما تقدم من الإجابات.

والذي تأكد لنا في كل هذا هو ائتلاف الجهاز المعرفي للباحث بتصورات مستحدثة سلك بها قنوات أدائية متميزة نوعياً، فمشبال كما مر بنا حاور السرد القديم بمجهر المقولات المبتكرة ثم عبّر عن حصيلته الاستكشاف بواسطة خطاب إبلاغي مستحدث، وهكذا تجنب الإسقاط، معتدا بالاستتطاق، وكان هاجسه في كل هذا هو استنباط علاقات من النصوص السردية تخفي على الحس الظاهر، واشتقاق قرائن تتوارى ثاوية وراء ملفوظ نصوصه، فمشبال إذن لم يتقيد بشبكة الدوال على حساب نسيج المدلولات، ولم يرهن مطارحته بمنظار المعنى على حساب ضفير الأشكال، بل إنّ مقارنته كان همّها الأوكد أن تعثر على نمط من انسجام خطابات السرد تخرجها على هيئة تشكيل صوري.

خاتمة:

إنّ ما ينبغي أن نبقي على ذكر منه هو أنّ النماذج القرائية للنصوص السردية الجاحظية التي وقفنا عليها تؤثر على المدار الذي ينتقل فيه التراث من الإطلاق إلى النسبية، ومن المادة الجاهزة والمكتملة إلى المدى المفتوح، في تصور القراءة التي تدرك أنّ الوعي بالتراث هو جزء من الوعي بالواقع المعيش، وأنّ الجديد والنهضوي، مطلقاً، هو مبني لا يكتمل دون القراءة التي تعيد إنتاج التراث لتتجدد به ويتجدد بها في الوقت نفسه، أن تقرأ يعني أن تفهم، والفهم هو منح المقروء معنى ما، معنى نصوص الجاحظ عموماً هو بصر يقتدر به على الرؤية، هو حياة يعيدها القارئ بها إلى المنظومة الوجودية؛ القراءة - من ثم - ليست تأشيراً على النص بقدر ما هي تأشير على القارئ، ولأنّ القارئ وعي ومنهج، فإنّ التراث المقروء مثلما هو القارئ، والماضي مثلما هو الحاضر، يخضعان، في القراءة، لبنيات معرفية أو أيديولوجية أعم وأشمل من جزئية أحدهما في المدى النظري المجرد. السؤال - إذن - عن القراءة الصائبة للمقولات النقدية في التراث، هو الوجه الآخر للسؤال عن القصديّة، أي مقصود القائل ومراده فيها. هكذا يغدو سؤالاً

غير مناسب، إن لم نقل إنّه خاطئ، لأنه يحيل المقولة النقدية إلى الجزئي، ولأنه يسأل عما لا يمكن البرهنة عليه، فضلاً على أنّ تعليق القراءة بالصواب يعني تهميش دور القارئ والقراءة، لأن الصواب اكتمال وانغلاق به يموت التراث ولا يحيا، ويتقدم ولا يتجدد.

قائمة المصادر والمراجع:

1. أمين الخولي: فن القول، دار الفكر العربي بالقاهرة.
2. أحمد بن محمد أمبيريك: صورة بخيل الجاحظ الفنية من خلال خصائص الأسلوب في كتاب البخلاء، دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية) بغداد والدار التونسية للنشر، سنة 1986.
3. جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ج1
4. الجارري، عباس: خطاب المنهج، منشورات السفير، ط1، 1990
5. الجاحظ: رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بمصر، 1965-1964. ج1
6. حنان المدراعي: المكون الحجاجي في الخبر ضمن كتاب بلاغة النص التراثي، مقاربات بلاغية حجاجية، إشراف محمد مشبال، دار العين للنشر، ط01، 2013.
7. فرج بن رمضان: الأدب العربي القديم ونظرية الأجناس، دار محمد علي الحامي، صفاقس، تونس، الطبعة الأولى، 2001
8. فرج بن رمضان: محاولة في تحديد وضع القصص في الأدب العربي القديم، حوليات الجامعة التونسية، ع 32، 1991
9. سمير سعيد حجازي قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر، ط1، دار الآفاق العربية، 2001م
10. صلاح الدين زرال: الظاهرة الدلالية عند علماء العربية القدامى حتى نهاية القرن الرابع الهجري، منشورات الاختلاف، ط01، 2008.
11. عبد القادر حسون: إشكالية المنهج عند النقاد المعاصرين ودورها في تطوير قراءة الشعر القديم، الندوة الدولية الثانية: قراءة التراث الأدبي واللغوي في الدراسات الحديثة، بحوث علمية محكمة، 2014، جامعة الملك سعود، كلية الآداب، قسم اللغة العربية وآدابها (نسخة إلكترونية).

12. عبد العالي بوطيب: الوحدة والتنوع في فكر عميد الأدب المغربي الدكتور "عباس الجاربي"، مطبعة الأمنية، الرباط، 1998
13. عبد العالي بوطيب: إشكالية المنهج في الخطاب النقدي العربي الحديث، مجلة عالم الفكر، العدد الأول والثاني، يوليو/سبتمبر - أكتوبر، ديسمبر 1994، المجلد الثالث والعشرون.
14. عبد الله العروي: الإيديولوجية العربية المعاصرة، ترجمة محمد عيتاني، دار الحقيقة، بيروت، ط1، 1970.
15. علي عبيد: في تحليل النص السردي القديم النادرة أنموذجاً، محلة الراوي، العدد 25، سبتمبر 2012.
16. عباس أرحيلة: الكتاب وصناعة التأليف عند الجاحظ، الوراقة الوطنية، مراكش، 2004.
17. علي محمد علي سليمان: كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج، رسائله نموذجاً، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 2010.
18. مصطفى الغرافي: في مسألة النوع الأدبي، دراسة في إجراءات المفهوم وتطبيقاته في الغرب وعند العرب الجاحظ، مجلة عالم الفكر، مجلة دورية محكمة تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، العدد 1، المجلد 42 يوليو - سبتمبر 2013.
19. محمد مشبال: بلاغة النادرة، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء - المغرب، 2006.
20. محمد مشبال: والسرد، جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة عبد الملك السعدي، تطوان - المغرب، 2010.
21. محمد مشبال: السرد الحجاجي في رسائل الجاحظ، ملف العدد: الخطاب السردي وآليات اشتغاله، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، مجلة فصلية محكمة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، العدد 2، 2013
22. محمد مشبال معنونة بـ"بلاغة رسالة المفارقة مقارنة بلاغية حجاجية لرسالة "فخر السودان على البيضان" بلاغة النص التراثي، مقاربات بلاغية حجاجية، إشراف محمد مشبال، دار العين للنشر، ط01، 2013.

²³. محمد العمري، بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الخطابة في القرن الأول نموذجاً، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط02، 2002

²⁴. محمد اليملاحي: أسئلة الفكر البلاغي في المغرب، مقارنة لمشروع محمد العمري، ضمن البلاغة وتحليل الخطاب إعداد وتنسيق: محمد مشبال، منشورات ضفاف، منشورات الاختلاف، ط2014، 01